ABU ABDO ALBAGL

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عود النعنع

قصص قصيرة

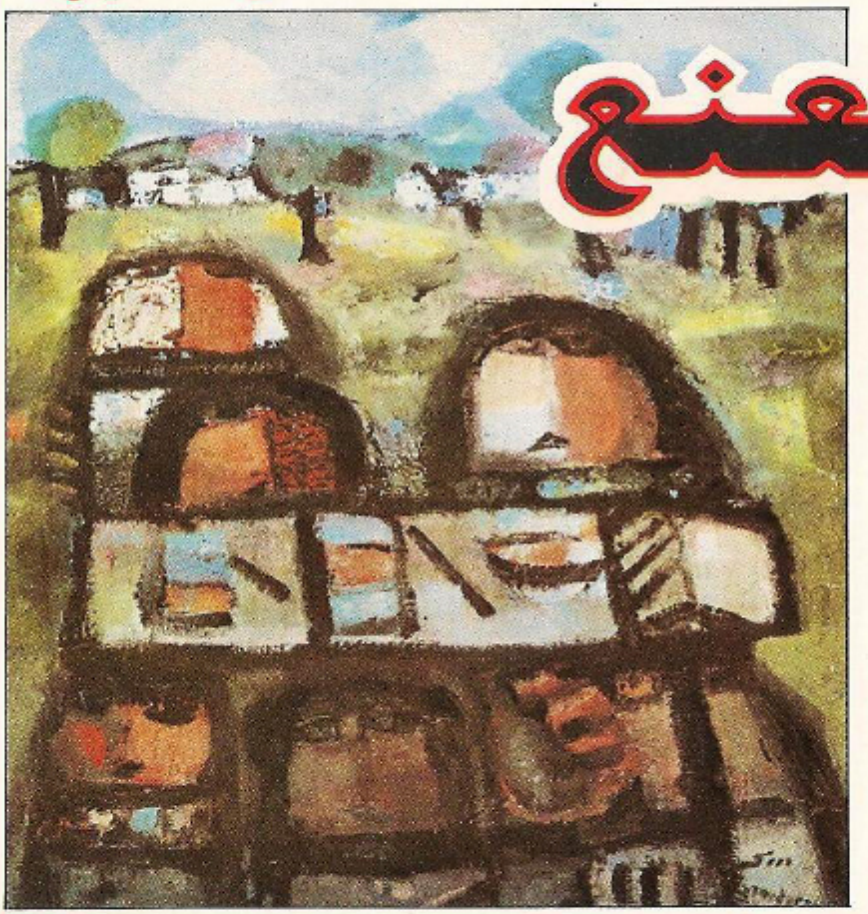

مدونة ابو عبدو

فاتح مدرّس

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

الطبعة الثانية
١٩٨٦

فاتح مدرس

عود النعنع

قصص قصيرة

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مقدمة

سعيد خوراني

بعد تسعين جلسة اصر عليها بيكاسو لتصوير جرترود شتاين . محا كلّ ما رسم وسافر الى الريف لعدة شهور ! وبعد عودته رسم جرترود دون حضورها ، ومن الذاكرة ، وعندما رأت اللوحة اصابتها خيبة أمل وقالت :

ـ هل يمكن ان تشبهني هذه اللوحة في شيء ؟

ورد بيكاسو بهدوء :

ـ ستشبهينها يوماً ما

ooo

منذ ربع قرن ـ فقط ـ وعلى ظهر يخت ، كان لملك رومانيا ، يقل الوفد السوري العائد من مهرجان الشباب العالمي في فرصوفيا ويحتل الحجرة الملكية فيه فلاح من الجزيرة ، كان فتى بحاجبين كثيفين وشفتين خلقتا لتذوق المتع ، وعينين نفاذتين عميقتين ينطّ في جوانب اليخت ومعه آلة تصوير ، تك .. تك .. تك .. عشرات الصور دون ان يدري أحد بوجوده ! وبعد التظهير ، أرانا صوراً وكأنها ديكورات لمسرح اللا معقول :

حذاءان في ضخامة حذائي اوليفر وبينهما وجه صغير بليد وكأنه خلفية الصورة . وفي أخرى فم فاغر شهواني يحتل ثلاثة ارباع الصورة وعينان مغمضتان لا تريان . وفي ثالثة اظافر قذرة في اصابع متوفزة لتمزيق شيء ما ، وفي رابعة : وجه وسيم ، وجسد رياضي ، وابتسامة ناعمة ، وعينان لصوصيتان ماكرتان وملحتان ، عينا مخبر المستقبل . . . وهكذا

ـ ما هذا يا رجل . . هل تستخدم الانسان كحيوان تجربة ؟

ـ ابداً . . انني اصور الجوهري . . اصور أهم ما في الشخصية في اللحظة التي انفلتت فيها من التزوير .

هكذا ردّ فاتح المدرس ! !

○ ○ ○

في الخمسينات ، عندما ربحت لوحة فاتح الرائعة « كفرجنّة » القرية المستلقية على جبال الشمال بألوانها العجيبة غير المألوفة ، وبالنبض الحي لصخورها البنفسجية الهادئة والحمراء الحارة ، احس الجميع ان عهداً جديداً في الرسم السوري قد بدأ ، في ذلك الوقت ، وفي رابطة الكتاب السوريين ، طرح اسم فاتح المدرس لقبوله كعضو في الرابطة الأدبية !

واحتج أحد المكثرين المقلين :

ـ انه لم يكتب سوى ثلاث قصص بعد

ورددنا جميعاً بحماسة :

ـ ولكنها تعادل ثلاثة كتب ! !

وقبل فاتح بالاجماع في رابطة الكتاب السوريين .

ولذلك . . ما كان اشد فرحي عندما علمت بأن فاتح ، أخيراً ، قرر أن يجمع بعض القصص القليلة التي كتبها في كتاب .

لننتبه ، ولا نقعنّ في خطأ فاحش ، فنظن ان هذا العمل ، قد طبع للذكرى والتاريخ ، كما يفعل بعض صغار ادبائنا ، فيجمعون مالاكوه في مناسبة وغير مناسبة في الصحف والمجلات من كتابات سريعة ، واحيانا فجة ذهب اوانها ولعلها ولدت ميتة ، ويخالون ان قدمها شافع لها في ان يتحف بها الجيل الجديد ! !

قصص فاتح كأفضل لوحاته ، وبعضها ، كعود النعنع ورشو آغا ، من افضل ما كتب ادباء العربية على الاطلاق .

وليس من بين اخطائي الكثيرة المبالغة في التقييم .

O O O

عالم فاتح ، كعالم كافكا ، مأساوي ومظلم ولكن كافكا يصل بنا الى درجة اللا جدوى ، بينما تحس بأن فاتح ، رغم كون الشر يطحن الخير في كل قصصه ، ورغم ان ابطال اربع من خمس قصص ينتهون بالموت المجاني ، نتيجة الظلم الاجتماعي وجبروت الطبيعة ، وبطل الخامسة يموت في الحياة بعد ان استهلك تماماً كجسد وروح ، فإن القارىء يحس بموجة عارمة من السخط والحقد ، تتجاوز مرحلة التأثر الى الفعل ، فاللا معقولية عند كافكا يحل محلها عند فاتح آلية العلاقات الطبقية ـ الاقطاعية الشرقية الاستبدادية في القصص ـ فهي تضعك أمام العدو وجهاً لوجه ، ورغم هزيمة الابطال المحتومة ، فهي هزيمة لا تضع القارىء على حافة اليأس ، وانما على طريق التغيير ، فلا معنى هنا لاتهام فاتح بالتشاؤم ، فمنطق الموت والمأساة في الفن

يتجاوز اليومي ليصبح الرمز للنضال ضد عذابات الانسان وضد مسبيها .

وامعانا في شحن المأساة بأكثر اعماقها حدةً ، يستخدم فاتح الطفولة المقتولة كذبح للبراءة في نظام لا انساني مطلق الاستغلال فبطلة « عود النعنع » ، قصته العظيمة الأولى ، يجرف النهر الطفلة عالو وهي تحاول قطع عود من النعنع لتداوي به أمها المصابة بالملاريا ، بعد ان رفضت زوجة الأغا ـ قاتل ابيها ـ اعطاءها حبة كينا . والطفل عليوي احد بطلي قصته « النهر » يجرفه الفرات وهو يحاول اجتيازه لينقذ اخته التي خطفها « الافندية » الى حلب . والطفلة الصغيرة في « الغراف » تبقى الشاهد الوحيد على موت أمها المأساوي التي تحوم حول جثتها الكلاب .

وفي « رشواغا » تتعدى الفاجعة رشو نفسه لتنسحب على بنته الصبية (الطفلة تقريبا) لتباع كصفقة يمنح بها حريته رغماً عنه ويلقى به ـ حراً ـ امام الجوع والموت . وفي « خير والعوج » الأجير الذي جن من ضربة غادرة لوكيل الأغا ينتهي به الأمر الى دولاب التراكتور الحديدي تاركاً عائلة واطفالاً وأماً عجوزا .

○○○

تلعب الصورة بوجه عام والصورة الطبيعية بوجه خاص دوراً مهماً في فن فاتح القصصي . فالفنان التشكيلي الكبير لا تخطئه العين في قصصه ايضاً . . ولكن الصور هنا ليست اطاراً تزيينيا أو استطراداً شكليا ، بل هي ، كالنهر المهدد تماماً ، تدخل في نسيج الحدث فاعلة ومنفعلة . . تتداعى احيانا فيخيل اليك ، لأول وهلة ، انهاتنحرف بخط مائل نحو الهامش ولكنها سرعان ما تطوقك وتطوق الحدث معا وتندغم فيه خطاً ولونا فلا تؤلف « خلفية » اللوحة

على لغة الفنانين وانما سداها ولحمتها ، بل انها في قصة « الغراف » تكاد تطغى على الحدث نفسه ! ولكنها ادت دوراً تخفيفيا في الحوار المباشر في القصة ، وهيأت الجو للمأساة ، ثم اندمجت لتشكل بطلة من ابطالها .

كل ما تلمسه يد فاتح من حجر وشجر ، وكل ما تراه عيناه من أفق وسماء وجبال ، يتحول الى وجود له حضوره المؤثر ، تشعر بغموضه وعدوا نيته فكأنه يشارك ، بل هو يشارك ، في غزل مصير الابطال الفاجع ولا يمكن هنا ، في هذه المقدمة المختصرة ، نقل النماذج والا نقلت نصف القصص ، ولكن اشير الى « عود النعنع » كمثال رائع على هذا التناغم الدرامي .

○○○

ولغة فاتح لغة طازجة ندية متقشفة وخاصة في « عود النعنع » و « رشو آغا» ،فوراء هذه العفوية والبراءة الظاهرية تكمن معلميّة وصنعة في اختيار الكلمة المناسبة ، واحيانا الغريبة ، واحيانا المخترعة ! المهم ان تلعب الكلمات دور الألوان في اللوحة من حيث التوازن والشفافية والايحاء ، فلا تستوقفك ولا تشعر بانفرادها ، وانما باندغامها المدهش في مجموع العمل . واذا كنت ضد استخدامه لغة عامية مغرقة في محليتها في قصة « النهر » فلأسباب فنية تتعلق باسلوب القصص فواقعية فاتح الملحمية التي تلعب الطبيعة والاسطورة واللوحة والألوان فيها دوراً مهماً ، لا تحتاج الى واقعية حرفية تنزل الحدث الى مستوى العادي لولا انه انقذها بتلوينات أخرى خففت من تأثير حوار الطفلين البالغ البساطة بل التبسيط .

○○○

هناك ميزة أخرى فنية ، وهي فهم فاتح العميق لجوهر القصة القصيرة ،

فهو يقتنص اللحظة القصصية ، وهي عادة مؤطرة بزمان قصير وحدث محدد ، فهي ليست سرداً لتاريخ حياة ولا حكاية تمتد سنوات . ففي « عود النعنع » تحدث القصة بأقل من ساعة ولكنها تضيء حياة بأسرها بعلاقاتها الطبقية والاجتماعية . وفي « الغراف » تتركز في رسالة الأخت الى اخيها ، وفي « رشو آغا » في رحلته المتوحدة مع الحمار وتداعياته البائسة ، وفي « خير العوج » في بحث الأم عن ولدها المجنون . وفي « النهر » في فكرة عبور الفرات . هذا التركيز على حادثة صغيرة تكون البـؤرة التي تجمع لتحرق نادراً ما نراه عند كتابنا الآخرين ، وهي ميزة لصالح الخط الملحمي الذي كتبت به هذه القصص .

O O O

وبعد ، هذه ليست دراسة نقدية لهذه المجموعة الفريدة ، وانما هي بعض الانطباعات السريعة التي اثارتها لديّ قراءة هذه القصص من جديد ، لقد شعرت مرة أخرى ان اكثر من ربع قرن من الزمان الذي انصرم على كتابتها لم يزدها الا فتوة ومعاصرة ، ذلك لأنها ذهبت بعيدا الى الجوهري والحي والباقي في ضمير الانسان

كانت الغمامة الرقيقة قد اكتملت فوق نهر « كيليكيا » المنسرب من أقصى الشمال السوري ، والظهيرة تسيل حرا لاغبا فوق تلال « حربة » و « دير شكين » ، ومن الجانب الغربي للنهر برزت قرية « داكرمان » كأنها عشر حجرات سوداء مبعثرة فوق تل « بركة » ، ومن دون هذه الغمامة كان الدرب من « صولاق داكرمان » الى النهر يبدو وعرا ومقشورا كأنه جلد ضب تحت مجهر .

هذا النهر الوديع ، المتواضع ، كان كعادته نائما وقد أغمض عيونه الكثيرة ، تحت غلالات من عيدان القصب وأشرطة الصفصاف الحزين ، وقد مدد جسده الطويل تحت ظلالها الزرقاء الممتعة بعيدا عن عين الشمس اليقظى بلا رحمة ، متوهجة ، على كل حصاة نيرانها ، تتغلغل بين أيكات الخرنوب وأشواك الكرنج . انظر ، ان قويق الجميل يتنفس في الشمال ، كأنه نهر حي ، وعلى ضفافه ألف قطيع في مراعيه .

ففي هذه الظهيرة المخيفة ، أغمضت « عالو » الصغيرة ، عينيها الرامدتين ، تحجب وهج الشمس بكفيها الدبقتين ، تسير الى النهر مطمئنة ،

من قرارة نفسها ، ورغم الأخطار الكامنة في شقوق الأرض وبين الصخور السوداء ، وبما أنها ذاهبة الى النهر فقد أحضرت معها رغيفا واحدا ، فانه يكفي ، وليتها أحضرت شيئا من الحلاوة ، اذن لأكلتها . هذا ما جال بسرها الصغير ، ولجاءت معها جارتها « نازة » ، ولعل « دنده » كانت تنازلت ورافقتها ، رغما عن ثوبها الجديد ، ولكن ما الفائدة ؟ . . .

وضربت « عالو » كفا بكف ، كما يفعل الكبار ، لأنه ليس هنالك أحد ، لا حلاوة تأكلها مع رغيفها ، ولا جارتها .

وتلفتت الى الوراء ، تمسح جدران القرية البعيدة بعينيها الموجعتين ، لترى ما اذا كانت أمها وراء الجدار متمددة على الأرض مريضة ، معصوبة الجبين بالمنديل . ورفعت خصلات شعرها الشاحب عن وجهها النحيل ، ثم استدارت وسارت صوب النهر .

وارتفع في السكون الأبيض نداء بقرة وراء المرتفع الذي يحجب النهر عن عيني « عالو » فحثت الخطى ، وكانت تتحاشى السير على الحصى الذي انقلب الى جمرات تلدغ قدميها الصغيرتين المتربتين ، وقالت بسرها : « سأسبح بعد قليل » ، وأردفت : « اذا لم يكن هنالك صبيان » . وهزت رأسها الأشقر ، وبلعت ريقها ، وسرها أنها ستستطيع فتح عينيها الى أوسع مدى تحت الماء ، وستسمع وسوسة الحصى المنزلق مع التيار في قعر النهر ، وسيكون لها تحت الماء قاعة خضراء ، لبعض لحظات ، ثم تصعد الى وجه الماء ، وتبصق .

ورفعت الصغيرة كفيها الى شعرها ومسدته ، كأنما قد خرجت لتوها من حلمها المائي الرطب ، وكانت التربة الحمراء تشوي قدميها ، ليتها لبست

صندل أمها ، اذن لسارت وكأنها تمشي على أرض معشبة . وانحنت الصغيرة ، فالتقطت عودا يابسا من الذرة ، وجرته ، فارتفع وراءها خط طويل من الغبار ، وتوقفت لحظة لترى كيف ستسوق الريح الغبار ، فكان الغبار يساقط بهدوء الى الأرض ، وسرها أن تعلم أن لا ريح الآن ، وان كان وجودها سيخفف وهج الحر عن رأسها ، وقالت : « أنا فقيرة » . ومسحت قطرات العرق عن ظهر أنفها ، ووقفت على رؤوس اصابعها لتستطلع ، هل النهر بعيد ؟ انه وراء ذلك الصف من الحور .

وتصورت كيف كانت تذهب الى النهر من قديم الزمان مع والدها « مسلم » الذي أرسله الآغا الى مخفر العسكر ، ولم يعد حتى الآن .

وبدت جبال « كمنون » الشمالية بعيدة ، بنفسجية وبعيدة . « لعله وراء تلك المرتفعات الآن » . . وأشارت بالعود الى الجبال . وتذكرت أنه قال سيحضر لها تمرا ـ اذا عاد ـ كما سيحضر لأمها الدواء .

وبينما « عالو » تحاور نفسها وهي تمضي على الدرب الى النهر البارد ، تعالى نداء بعيد ، آت من ورائها ، من اعلى التلة مناديا : « عا . . وو . . » فلم تلتفت ، واكتفت بأن جلست حيث هي ، ثم التفتت نصف التفاتة وجلة ، وقلدت النداء : « عا . . وو . . » . وسرها أن أيقنت أن الصوت كان لبقرة ، وليس صوت حارس الضيعة الذي يمنع الأولاد من مغادرة الجدران السوداء ، لا لشيء الا لأن « الآغا » قد أقام لنفسه بستانا بجانب النهر . وبما انها ليست ذاهبة باتجاه البستان ، فلماذا لا تنهض وتمضي بسبيلها ؟ .

وهكذا نهضت « عالو » ومشت بهمة ، ترمق بين آن وآخر أصابع قدميها

المحترقتين . وأحست أن ماء يغلي في أعماق أذنيها ، فضغطت عليهما براحتيها فتحول الهدير الى وشيش ، ثم عاد فاتضح أنه دوي تيارات النهر القريب ، يخالط حشيش أوراق الصفصاف على جانبيه ، وتذكرت لتوها تحذير أمها لها : « ستموتين اذا وقفت في عين الشمس . . عودي اليّ بعد أن تعطيك زوجة الآغا حبة الكينا » .

ولكن لماذا طردتها زوجة الآغا ، ولم تعطها الدواء ؟ وكانت عيدان الحصاد تبدو وكأنها مسكوبة من زجاج أصفر ، فهو هشيم ، ولم تستطع ان تفهم لماذا منعوا عن أمها المريضة حبة الكينين ، ومر سرب من الجمران الأخضر فوق رأسها فبعثرت شمله بالعود الذي في يدها ، وكادت أن تنسى مهمتها ، فهي ذاهبة الى النهر في شغل . الدواء على شاطىء النهر كما قال الآغا : « خذي عودا من النعناع الى أمك أيتها العمياء » .

هذا ما أمر به الآغا . . .

« ولا يوجد عندنا طوقتور يوزع الكينا » .

هذا ما قاله الوكيل ساخرا ، وكان هنالك عسكري جالس على حافة عتبة باب « الأوضة » يأكل لحما فلم يطعمها . وتمنت أن تكون ذلك الكلب الذي يكسر العظام بأسنانه . ولكن هي ذاهبة في مهمة ، « الى النهر يا عالو » ؟ وضحك منها كل من كان في الأوضة عندما تعثرت بالكلب ، وخرجت باكية .

ورفعت البنت الصغيرة وجهها الى الشمس أول مرة ، بعد أن أغمضت عينيها ، لترى ما اذا كانت الشمس حقا ظالمة كالآغا أو كزوجته « فظلة » ، ودقت الصغيرة بقبضة يدها على صدرها ـ كما يفعل الكبار ـ وصاحت

« ربم . . ناقدر ظالم » وأطرقت لحظة وقد جمد وجهها فشدت على صدغيها بكفيها ومشت مترنحة نحو النهر .

وارتفع الأفق الشرقي كأنه جدار قد من زجاج رمادي رجراج ، كان النهر بعيداً وأمها مريضة ، والأرض حمراء كالتنور ، فهبط قلبها غما وعطشا فجلست دفعة واحدة على الأرض ، وراحت تبكي معولة ، ولم تلبث أن شرقت بدمعها ، فأخذت عودا من السوس ملقى بجانب الدار ومضغته ، ثم نهضت معتمدة على ركبتها - كما يفعل الكبار - ومشت ، فبرقت عيناها الزرقاوان بعد هذا البكاء ، وابتسمت بلا سبب كما بكت ، ومسحت - وهي تمشي - عينيها بكفها الأيمن ، ثم بكفها الأيسر ، وتسربت بقايا الدمع الى حلقها فبلله بقطرات مالحة ، وكانت « عالو » قد بلغت « قبور الكاور » وهو المكان الذي اذا وقف الاطفال الكبار على صخوره المنبوشة شاهدوا النهر ، فتسلقت احدى الصخور ووقفت جاهدة على رؤوس أصابعها ، وحجبت بكفها اليمنى الشمس عن عينيها ، ومطت عنقها . ولكنها لم تجد النهر . . . الا أن ريحا رقيقة هبت على وجهها الملتهب ، فانحدرت وراحت تركض وتغني « كندر ، كندر كندرا » . وهي أغنية كردية قديمة يغنيها الاطفال الأكراد الجياع ، ومعناها « كوسا ، كوسا ، كوسا ، كوساية » وأردفت :

كندر كندر كندرا
كندر تفا برغرا

ومعنى ذلك أن الكوساية مع البرغلاية . . الى آخر ما تبقى من الأنشودة :

كندر وينا هندركن

وكان النهر قد انكشف أمام عينيها ، فتوقفت عند أول شجرة زعرور ، حيث يقوم قبر ولي من أولياء الله « الأكراد » ، يشاع أن أسمه « ولي محمود » . أي « محمود المجنون » وقالت بسرها لولي الله : « لماذا لا يوجد زعرور على هذه الشجرة أيها الولي الميت ؟ » .

وانحدرت نحو الوادي العظيم . . .

أثار النهر ظمأ « عالو » فخفق قلبها بفرح رطب ، وتصورت كيف سيكون نقر الأسماك لقدمها لذيذا ومخيفا ، وفتشت عن عود غليظ لتهش به الكلاب التي تلجأ الى وحل النهر في مثل هذه الظهيرة طلبا للرطوبة وتخلصا من نهم الذباب الأحمر والقراد ، وتذكرت كلبها الأعمى الذي قتله حارس القرية في الشتاء الذي نزلت فيه من السماء « زعقة » عظيمة ، فأراد اظهار شجاعته فصوب بدوره « جفته » على كلبها المسكين . كل هذا جرى بعد أن سافر أبوها ولم يعد ، ويقال انه مات . الا أنها لم تصدق ما يقوله الناس ، فمسلم لا يموت ، لأنه طويل وشجاع ، وأنها تحبه .

وتطايرت أسراب الفراش الأحمر وهومت في خفقات نزقة حول قدميها ، وفوق أعواد السلال الشائكة ، وكانت مياه النهر ، وقد تجمعت في بحيرات لا تحصى ، تبدو كعقد لؤلؤي ملقى على قطيفة خضراء مفروشة من أقصى الشمال ، من عنتاب ، الى اقصى الجنوب الى حلب . كان النهر يبدو كصف من المرايا المكسرة مرصوفة بين التلال .

ولم تكن « عالو » وحدها على النهر ، فلقد سبقها جماعة من النساء يغسلن ويغتسلن حول قدر يتصاعد من جوانبه الدخان فنادتها احداهن

تصرخ : « هل على النهر رجال يا بنية ؟ » الا أن « عالو » اختفت وراء شجرة صفصاف ، ولم تجب ، وتعالى هدير النهر حتى أصبح كهدير طاحون « دير شكين » في مسامعها ، وكلما تقدمت خطوة نحو الضفة ازدادت رطوبة التربة ، ولانت تحت قدميها ، وتغلغل العشب القصير الحاد بين فرجات أصابع قدميها ، ولم تنس النعنع فراحت تبحث عنه بعينيها الدامعتين فنادتها امرأة اخرى : « عالو » عودي أيتها العمياء الى أمك ، وأردفت أخرى اذ تمشط شعرها ضاحكة : « ستتزوج أمك من جاويش حسن اذا لم تمت . »

ثم هرولت نحوها امرأة مجدورة منكوشة الشعر متهدلة الثديين تقفز فوق الشوك وأمسكت بكتف البنت وهزتها صارخة . « لماذا جئت الى هنا أيتها الشيطانة الصغيرة ؟ ألا تدرين أن الكولة عميقة ؟ هل تودين أن تلحقي بأبيك مسلم ؟ . . »

أرعب الصغيرة هذا القول وسرها في آن واحد ، وتراجعت أمام المرأة المنكوشة الشعر ، ووقفت مطرقة ، وقد جمدت معالم وجهها ، فتركتها المرأة ، وعادت تنظف مشطها ، وتلغط بكلام كثير ، وصاحت بها امرأة أخرى تنشر غسيلها على الشوك :

ـ عالو ، يا بنيتي عم تفتشين ؟ ستقتلك الشمس اذا وقفت في عينها . . .

فقالت عالو بصوت خفيض :

ـ أريد نعنعا ، عود نعناع لأمي ، هي مريضة .

وحسبت الصغيرة أنهن قد سمعنها وسيتركنها وشأنها ، الا أن هدير النهر كان أقوى من أن يوصل غمغمتها الى سمع أحد ، ولم تلبث النسوة ان تركنها وشأنها .

فاقتربت عالو من ضفة النهر ، ومن فرجة بين القصب رأت على الضفة الشرقية جماعة من الصبيان يلعبون في الماء ، وكم ودت لو أنها شربت وعبت ماء ، ثم سبحت وسبحت الى آخر الزمان ، وألهتها ضفدعة خضراء صغيرة جاثمة على شريط قصب ، فمدت عالو يدها فقفزت الضفدعة وسقطت في الماء تاركة وراءها حلقات حلقات . . . وودت لو كان معها عود ملتهب تأخذه من تحت القدر ، فتدخله في الماء ، اثر هذه الضفدعة المتوحشة التي أبت صداقتها ، اذن لكان للعود « جزيز » في الماء وانها تحب صوت جزيز العود الملتهب اذ ينطفىء هكذا « جز . . جز » .

وسقطت أبصارها على حزمة مزهرة من عيدان النعنع قائمة على الضفة ، فنسيت الصغيرة عطشها ، كما نسيت أمنيتها في أن تسبح ، فتقدمت بحذر نحو العيدان المزهرة تجس مواطيء قدميها ، وقالت تحدث نفسها :

ـ ان السمك وراء هذه العيدان كبير . . وأدركت أن الماء عميق هنا ، وأنه بدأ يطل عليها بعيون خبيثة ، وبدت الفجوة التي تفصلها عن حزمة نبات النعنع كأنها بلاطة ملساء ، فاقتربت محاذرة تدوس العشب الندي خطوة خطوة خطوة ، واختفت عالو تماما بين عيدان القصب والصفصاف ، فكثرت الضفادع الخضراء حولها ، ترمقها بعيون صفراء كبيرة مستطيلة ، كل ضفدعة بحجم الفولة المقشورة ، مقشورة وملساء ، وأمسكت بضفدعة صغيرة جدا ، وقبلتها بحنان ، وراحت تغني لها هامسة : « ورا فيره يور قشكه . . . وينا فيره حيرانم » وتصورت الأمهات يحملن اطفالاً عراة على أيديهن ، شعرهم مثل القش ، وأنهن حائرات بحبّ أولادهن ، كهذه الضفدعة ، وأن افواه الضفادع عريضة كأفواه الأطفال اذ يصرخون طالبين أمهاتهم ، وأمهاتهم في الحصاد ، ونقت الضفدعة على كفها كأنها ترد « تعالي لي . . » وصمت

الضفدعة لعلها لم تحسن ترجمة الأغنية لصعوبتها . وكان نقيق الضفدعة أول تحية من هذا العالم الى عالو ، عالو البنت الصغيرة من ضيعة صولاق داكرمان التي يحكمها الأغا الشرير « حموكيا » والذي لا يعطي البنات اليتيمات دواء لأمهاتهن المريضات ، وأرادت عالو أن ترد تحية الضفدعة بأحسن منها فاسلمتها الى شريط عريض من القصب ، فاستكانت عليه الضفدعة آمنة مطمئنة ، فقالت عالو هامسة : « أزتا حزدكم » (أنا أحبك) فتململت الضفدعة من طول زيارة عالو ، وقفزت الى الماء قفزة رائعة ، فقالت لها الصغيرة :

« وهل في قلب النهر طعام كثير أيتها الضفدعة ؟ » وأخرجت من قعر جيبها « فرافيط » كعك قديم ولعقته ، وتمنت لو كانت ضفدعة .

وساد السكون على عالم الصغيرة ، وراعها أن تكون حقا وحيدة ، اذ ان الأصوات خفتت من حولها وازدحم في مسامعها الطنين من جديد ، وارتعش القصب فخفق قلبها ، وتذكرت عود النعنع الذي سيكون دواء شافيا لأمها ، فانتخبت بعينيها أكثر العيدان زهرا ، وكان الماء لا يزال يرمق « عالو » بعين واحدة كبيرة ، فمدت يدها وشدت اليها العود ، فانزلقت « عالو » .

وارتفع نداء مكتوم من طيات الماء على شكل فقاعات لم تلبث ان انطفأت . . . وأرتفع رأس صغير ، شعره أشقر ، وضربت عالو بيدها الماء حاولت ان تمسك بالسماء فكانت هذه المرة عالية ، عالية ولم تلبث السماء أن اختلطت بالماء ، وفي غمرة رعبها المميت نادت « آو . . . » ونادت أمها بأعلى صوتها ، الا أن ماء النهر لين وعميق وقاتم ، وفي لمحة عين تقصفت جميع عيدان النعناع الـ . . نع . . ناع . . النع . . وحاولت أن تتشبث بها ، وكان التيار الخفي يدور بها ويقلبها ، واكتفى بأن دار بها دورتين فغيبها .

غاصت عالو كما يغوص عود ثقيل ألقى عاموديا في اناء . فلامست أقدامها القاع الموحلة ، ودارت في رأسها الصغير عجلة الزمن خاطفة . . . . فصرخت : « آني . . . » أمي ، فقالت لها أمها : « هات يدك يا عالو ، يا حبيبتي » ، ونفذ بسرعة البرق أبوها مسلم خلال الغمامة الرقيقة ، وترك السماء لأصحابها ، وانحدر كالشاهين نحو عالو ، وصرخ بها ، وهزها ، بصوته الجهوري أن « تمسكي بالحشائش يا عالو . . يا صغيرتي » .

ورأت عالو وجه مسلم يقترب ، ويكبر ، واختلط بوجه أمها ، وكانت لا تزال تعصب رأسها بمنديل وراء الجدار ، وتحول قصب الشاطىء الى ألف يد منها السوداء ومنها البيضاء ، وعرفت بينها يد المرأة الطويلة ذات الوجه المجدور ، ودارت وجوه كثيرة حولها ، وملأ الظلام وجه يصرخ بها « الى النهر . . . الى النهر » وشعرت أن يدا تهزها وتصرخ بها : « الى النهر أيتها البرصاء » ، وألقى « حموكيا » اليها بألف رغيف وقع على وجهها ، فهي تأكل ، الآن كثيرا . . من الماء . . وان الوجه الكبير وجه الأغا غدا كبيرا ، مكشرا عن أنيابه كوجه الكلب الذي يكسر العظام ، وقبض على صدرها ، فمزقه بأنيابه ، وأرادت أن . . . الا أن الفقاعات كانت قد تكاثرت على وجه الماء ، فقالت لها أمها : « اذهبي الى حلب ، مع النهر ، وسأذهب معك » . وأمسكت بيد « مسلم » ودارت حولها ، تصرخ بها « معا . . » .

واحتواها شلال عظيم مظلم أحرق عينيها وعنقها ، وصدرها ، ومزقه ، وشعرت بأنها تغوص بسرعة لينة نحو قاع عين كبيرة ، وتذكرت عين الشمس ، وفار صدرها كالمرجل ، وأنه سينفجر . . سينفج . . . ر . . .

وفار ماء النهر وطاف شعر أشقر . . كانت الشمس حسبته حصادا سبقت وأحرقته ، قطف حلقات حلقات ، ثم طفا ثوبها الأحمر المنقط بنقاط بيضاء ،

حتى بدا كأن قلب النهر ينفجر حزنا وتقلب رأس عالو مع التيار والتقى وجهها بوجه السماء . . . لقد كان وجه عالو جميلا . . . الا أن وجه السماء كان لا يعرف العداوة . . ولا الرحمة حسب عادته .

وقال الراعي الذي انتشلها مساء من الماء انه وجد في يدها عودا من النعنع .

الدرب الى ضيعة « عين دقنة » يبدأ من « كفر أنطون » عبر الترابة القانية ، تراب أخذ من الدم لونه وذاك ما امتازت به سهول الشمال المشرقة الوضاءة التي تمتد أميالاً حتى تتفانى عند أقدام طوروس وكاورضاغ ، تلك العمالقة الزرق من الجبال المتاخمة للحدود الشمالية لسوريا . جبال تأخذ لون البنفسج كلما اقتربت من معالمها الشاخة ، جبال كأنها جدران لوحة خارقة البعد ذات شفق دائم رطب غارق في ضباب خفيف .

وعلى المنحدرات القريبة تتكوم ظلال كروم التين والزيتون والعنب ، وعلى سفوح « مشعلة » تبرز أكتاف عارية وردية لانهدامات بعيدة الغور في التاريخ ، حتى اذا ارتفعت بك الأرض شاهدت ظلمات كفر جنة الزرقاء ، ومن الغرب تقف بيوت « عاشق كبار » عالية وربما خامرك شك في أن هذه الأرض كانت فعلا جنة صغيرة تمتد متعرجة الخضرة على حواشي فردوس يقع في مكان ما حول الجبل الأقرع ، وتطالعك بين سطور الأرض المفلوحة قصة .

فأنت تقرأ الآن في كتاب أسطوري مصور ، هنا كانت ضيعة كبيرة فانطمست أثر حرب ما فأسست تلا ، فانظر ما أكثر التلال تقوم وكأنها قباب

فثران الأرض ، واذا ما فحصت الأرض بقدميك كما تفضل الطيور البرية ظهرت لك النقود العربية التي وزعها ابو عبيدة الجراح على جنوده قبل المعركة او بعدها لا أدري . وتلك التي تبدو أكبر حجما ربما كانت لجنود سلوقس . والمتآكلة الحواشي ربما دفنها جماعة من المحاربين اليونان الذين رافقوا الاسكندر المقدوني ، فهذه السهول الحمراء كانت ملاعب لجبابرة التاريخ الدامي ، راح ضحيتها آلاف الفلاحين والفلاحات . . هنا سلبت مواشيهم ، وهنالك انتهكت اعراضهم ، وعلى هذه التلة أحرقت جثث الأعداء من الأهالي . . حروب ذهب ضحيتها اهل الأرض أما المحارب فقد انتصر ومضى في غيهب التاريخ الكريه . . .

وفي صدر أم « خيرو » تنشب ، معركة أشد ضراوة من حروب الأيام الخوالي ، فكان فائق آغا يصول ويجول في خاطرها ويفتك كالذئب بجثة على قارعة الطريق ، جثة ابنها « خيرو » وان ابنها على الرغم من جنونه يحاول أن يطيب خاطر أمه بعينيه الفارغتين . . .

وضعت العجوز يدها على صدرها ، فتساقطت أحلامها تساقط حفنات التراب فوق قبر ، ورأت أن منديلا ضخما بدأ ينسحب فوق وهاد تل اعزاز وسفوح « مشعلة » وأن الفجر بعيد بعد ، وهي وحدها تضرب في البرية تفتش عن عزيز غاب في دهليز مفزع .

رفعت أم خيرو يدها عن صدرها فهبت ريح أول كانون باردة عليها ، وتغلغلت في عظامها وهي فريدة في هذه البرية ، فأصلحت غطاء رأسها ثم نفضت ما علق بحدوتها من طين وشوك ، ومشت وفي صماغ أذنيها رنين مدغوم بأنة طبل عميق الصدى ، مدغوم بصراخ قديم ، فزفرت في هواء الفجر البارد وفي عينيها غبش ومسحة من دمعة دائمة .

وعلى أقصى الدرب كانت نقطة كبيرة تتحرك ، مقبلة نحوها ، فحثت خطاها نحو الدرب حتى اذا وضح أمام عينيها عرفت فيه « الجرجي حمدلي » فبادرها بالسلامو عليكم . . . ـ وعليكم السلام يا عم حمدلي ، دخيلك شفت اللّي العوج ؟ حواليك ، جنب زيارة الشيخ صدقة .

وضاعت بقية العبارة في الريح عندما ابتعد عابر السبيل يحدث حماره بأن الله وحده هو جبار المصايب . .

وعاد السكون المعتم يحير الفضاء أمام عيني أم خيرو وهي تضرب في الأرض الحمراء بقدميها تحكي قصتها لنفسها من جديد .

ولكن حتى القطا على جنبات الدرب كان يشاهد ام خيرو في مثل هذه الساعة وهي تبحث عن شيء مفزع يمشي كالخيال بين عيدان الذرة المحصودة ، على اثنتين وأحيانا على أربع ، فلم يحرك ساكنا ، وكذلك الحجل لم يشأ أن يثب أمامها .

ـ ولعل طيور التوتي ذات الأعراف ، تعرف . . تعرف .

قالت العجوز ذلك بسرها ، وأخذ وجهها شكلا كالأرض المفلوحة .

ـ « وان طيور التوتي لم تتوت بعد » ـ .

قالتها بسرها أيضا : « ولعلها تطير الآن لقد أقبل الشتاء » .

وهز العجوز برد فاجأ عظامها ، وتحركت بومة على صخرة قريبة ثم جدت ، وعندما انحنت العجوز لتلتقط حصوة طارت وحطت على صخرة أبعد ، وبرز « مزار الولي » (صدقة) على يمين الدرب كأنه كومة عظيمة من الحجارة لولا بقايا قائمة من القبة .

- « يمكن يكون نايم عند الشيخ » .

قالت ذلك بسرها واتجهت الى المزار وعندما اقتربت منه طار سرب من الغربان كان ينتظر أولى شعاعات النهار بفارغ الصبر وغابت العجوز بين الطلل تنادي :

- « يول يا عوج . . . يا عوج . . . يا بني يا خيرو ، أنا أمك رد علي . .

وعندما خرجت من الجدار الشرقي لم يحرك ولي « الله » (صدقة) ساكنا ، لقد كان ميتا منذ أكثر من مائة عام ، وخطر للعجوز أن تعود لتقرأ له الفاتحة ، فعادت وعندما وضعت يدها على منديل الشيخ المتكور تحت خشبة القبر المتآكلة وكانت الأمطار والرياح والثعالب قد تعاونت على تمزيق لفّة الولي (صدقة) فمدت العجوز يدها الى صدرها وسحبت صرة أفرغت ما حوته من خبزات في عبها ثم ربطت دمباكية الولي بالمنديل وقرأت الفاتحة باللهجة التركمانية حتى اذا بلغت الى مالك يوم الدين قالت : مليك يوما لدين وتصورت ولي الله صدقة يقف أمام العرش الرباني وفي يده منديلها الأحمر يقول للعلي الأعلى أن أم خيرو العوج أشفقت عليه وعلى سمعته في الدنيا الأولى ثم يلتفت اليها باسما ويريها عينه الواحدة التي في قرص رأسه ويغيب .

وهنا عادت الى واقعها فخرجت من الزيارة مشفقة أن ينكمش الخبز في صدرها البارد فلا يستطيع ابنها المجنون أن يأكله فيما لو عثرت عليه في برية الله بعون وليه الشيخ .

جلست العجوز على صخرة ، وتوجهت بخديها الجعدين الى الشرق ، ترقب طلائع الأنوار تهب في رحاب السهول ترسم أقواسا للحظات ، ثم تمتد مبتعدة فتمس هامات الجبال البعيدة المتكللة بالثلج وبدأ الخبز في صدرها يجف

فتذكرت المنديل على دمباكية الشيخ وخالجها خيط رقيق من الندم البشري الأصيل فأبنها العوج لن يستطيع بالتأكيد بلع هذا العظم المشوي .

« سأدفنكم أحياء » . .

قال فائق آغا من « عين دقنة » للفلاحين « وجمع بأم العوج خيالها في برية عين دقنة وأحست أنها ستسقط بعد لحظات في قبر عريض « عرضه السموات والأرض » . وانها لا تدري ما اذا كانت هي حية أم ميتة ، وان وجوه أهل الضيعة قد برزت فوق الأرض مستندة على ذقونها في هذه البرية المفلوحة تلقي ظلالها المستطيلة على المحاريث الصدئة ، ثم انفرطت الوجوه دفعة واحدة وعادت لتجتمع في وجه واحد هو وجه خيرو العوج ، وكان وجها صارم التقاطيع عميق « الشيء »

ان هنالك شيئا في وجه ابنها عدا الجرح ، عدا معالم الجنون ، لعله يريد « الشيء » ، وباستطاعتها معرفته ـ لولا خوفها من أن يسقط الخيال في الوهدة . . فأطرقت العجوز وكأنها رؤوس نبات دبابيس الحمام اليابسة من العام الفائت قد تلونت بالضوء الوردي المعتم ، وان دبابيس الحمام راحات أطفال صغار ماتوا من الجدري ، وان رؤوسهم مطمورة تحت التراب وأيديهم تثقب جلد الأرض ممتدة حمراء عليها ريش ناعم ، ممتدة نحو السماء فقط ، وهزها من تصوراتها طرق ضحكة مجنونة فصرخت « ولك يا عوج » .

ولكن لم يكن هنالك أحد ، لقد صوتت بومة حطت على ضريح الولي ، وعادت الطبول تقرع في أعماق أذني أم خيرو . . . لعلها رياح الصباح الباردة ، فاعتمدت بيديها على ركبتيها ونهضت فطقطقت عظام جسدها طقطقة أكواز الذرة في التنور ، ونادت :

ـ رحمتك ياالله . . .

فضحكت منها البومة مرة ثانية . فتشاءمت العجوز وقالت :

ـ الله يعطينا خير هالنهار . . .

ومشت من جديد تضرب في أرض الفلاحة تبحث عن عزيز غاب .

* * * *

كانت قرية « عين دقنة » من أسعد قرى قائمقامية اعزاز . وكان الأهالي يملكون أشبارا طرية من الأرض الكريمة يفلحونها ويأكل الصغار البطيخ والجبس والذرة الصفراء ، ويحوشون الجذور الحلوة من الأرض ، جذور « الخاليوك والسلين » ويحكون حكاياتهم عن الخليفة عبد العزيز ، وينشدون أبياتاً للشاعر الحلبي « سعدان » وكان الناس يحجون الى قبر أخي داود عليه السلام المدفون في قرية « شملا » وكانوا يرقصون كلما تكومت البيادر ، حتى اذا مات أحدهم حفروا له قبرا قرب الزيارة ، وربما عثروا على الكنوز التي دفنها جنود « شلمانصر » . أو يزورون « تل أرفاد » فيحدثهم سليمان مفتاح الخير ، عن « أضمن الطرق لاستخراج الكنوز » وكان القمر يدور دورته الذهبية فترمي الأرض وهي مغمضة العينين بالغلال .

وهبط عليهم فجأة ، فائق آغا ، كما تهبط أسنان الجرجر على أكوام الدريس ، هبط . . . بعد أن اشترى عشرات الأفدنة من مئات الفلاحين الذين سجنتهم الحكومة أثناء الانتخابات ، لقد كان قاضيا ! !

ويوم جاءهم « التراكتور » يقوده شوفير أرمني ماهر ، طار الدجاج ، وهربت الأبقار ، وانكمش الأطفال على صدور أمهاتهم . . .

الا أن خيرو العوج صاحب أرض البطيخ ، لم ينم تلك الليلة . . انه أجير ، وان الأرض التي يفلحها اصبحت ملكا للآغا ، وان التراكتور فلاح هبط من الجنة ، من « أمليكا » هبط على عين دقنة « الحقيرة » كما قال وكيل الاغا . ولذا فخيرو لم ينم تلك الليلة .

وضمت العجوز كلتا يديها الى صدرها وبكت في الفضاء الرحب ، ودعت على فائق آغا ، ولم تجرؤ أن ترفع صوتها كيلا يسمعه الله . . . لان فائق اغا جاء بمشيئة الله الى « عين دقنة » كما قال الامام . . .

وباع أبو عثمان أرضه وهاجر ، وأم جمعة باعت أرضها لتخلص ابنها من السجن بعد أن تشاجر مع وكيل فائق غا ، والحاجة فطمة باعت أرضها للآغا لتذهب الى الديار المقدسة وتموت هنالك ، وكذا هاجر الأجير « أبو المحلي » مع أولاده وأمه وزوجته الى (سجو) فالتراكتور يفلح خيرا منه . و (ابو رحمو) باع كرمه للآغا بعد أن أصابه الصقيع ، فداس التراكتور الكرم وقلبه قلبا فأصبح بحرا من التراب الأحمر .

وتصورت العجوز أن التراكتور يمشي على عظامها بعد أن تقبر ، فانكمشت ولعنت قزيل بك الجركسي لانه أول من باع أرضه لفائق آغا ، فجلب كل هذا البلاء على أهل الضيعة .

وتصورت أنها لو استمرت تمشي لوصلت حتما الى تلة الرؤوس التي حصدها « شلمانصر » . وكومها فوق تل رفاد في قديم الزمان .

وهنالك لمحت « شيئا » متكورا على شمالها بين عيدان الذرة المحصودة ، فركضت نحو الكومة وتهافتت عليه باكية بصمت .

رفع الشيء رأسه ، وهال الأم ما لحق بابنها من تحول سريع ، أطاح بملامح وجهه التي تعرفها كما تعرف ظهر يدها ، لقد طال شعر رأسه وغطى وجهه شعر أسود كثيف قذر ، وانطمرت عيناه تحت حاجبيه ، وتورم جرح رأسه فاختلطت دماء جديدة بأخرى قديمة ، فأفردت الأم منديل رأسها فبان شعرها المخضب بالحناء ومسحت بالمنديل وجه ابنها وعينيه ، وشقت قسما منه وعصبت به رأس العوج وقالت :

ـ يا بني يا خيرو ، الولاد مشتاقين لك ما تروح عالبيت . ولما لم يجب قالت :

ـ أنا أمك يا عوج ما بتعرفني ؟ ابنك محمود عم يشتغل في حواش الزيتون ، بيسلم عليك .

وأخرجت العجوز مقصا قصت به الدم العالق بالشعر ، ثم مدت يدها الى عبها ووضعت بين يدي ابنها الخبز والبندورة والملح ، وراحت تطعمه بصمت ، وكان بين آن وآخر يدفعها بعيدا عنه ليقضم أطراف أصابعه .

وتسارعت الأحداث تعيد نفسها أمام الأم اذ تنظر الى رأس المجنون « يعيش فورطون » . . . « خيرو مجنون » . . . « العوج جن جن . . . جن » . . . ومسحت العجوز دمعة بكمها . ورأت كيف ضرب وكيل الآغا ابنها غيلة بالمفتاح الانكليزي عندما جاء يتلمس جنزير التراكتور . وكيف سخر العسكري منها عندما تقدمت بشكواها اليه فقال لها هازئا :

« ابنك جن ؟ » وضحك « خديه عالعصفورية ، فاتق آغا اله كلمة في الحكومة . . »

ومن يومها هام العوج في البراري والأم تخرج بين فجر وآخر تبحث عنه

بالتراب فهما تتقدان كالجمر ، وسر الأم أن ابنها قد بدأ يتصرف بمشاعر جديدة راودت عقله المحطم . وتأملت العجوز وجه ابنها المجنون ملياً ، فرأته أخذ يشبه وجوه الأصنام التي ينبشها « الانتكجية » من جوف الأرض قرب شق الكوكب .

وارتفعت الشمس رمحا فوق تل أرفاد فنهضت العجوز ممسكة بيد ابنها وسارا صوب الضيعة ضاربين في أرض الفلاحة على مهل . . .

كان العوج يمشي أمام أمه وقد انكمشت يده على حجر التقطه قبل أن ينهض ولم تحاول العجوز أخذه منه . عندما أطلت شجرة التوت الوحيدة في قرية عين دقنة على الأفق الشمالي ترامى هدير التراكتور الى سمعها فجمد الرجل لحظة ثم استأنف سيره وقد اتسمت خطاه بسمة العاقلين ، وكان باستطاعة الأم أن تلمح أصابع ابنها تتشنج على الحجر تكاد تعصره ، فقالت بصوت حنون فيه رجاء وتحذير :

- ابني يا خيرو ، يابو محمود ، أعطني الحجر .

الا أنها لم تجرؤ على مس يده ، واتسعت المسافة التي تفصل الأم عن ابنها وعندما ظهرت بيوت القرية واضحة تنعكس على جدرانها الشرقية اشعة الشمس هرول المجنون يضرب الأرض بقدميه الحافيتين مادا يده الممسكة بالحجر أمامه كأنما يود تسليمها لعداء آخر . .

وفي هذه اللحظة كان هدير التراكتور يصم الآذان ، وبرزت مقدمته وراء البيوت الشمالية فركض المجنون وركضت العجوز وراءه وقد ادركت وهلة هدف أبنها . . وراحت تصرخ برجال القرية أن « أوقفوه » . .

وتجمع بعض الفلاحين وحاول أحدهم ان يتقدم فأمسكت به زوجه ، وركض الأطفال هنا وهنالك وتسلقت النسوة الأسطحة واعتلتها ، ورفع حمار

أذنيه وصوبها نحو الرجل الراكض ثم ما لبث ان استدار وراح يرعى قرب المزبلة .

ركض العوج كما يركض أي مجنون في شوارع المدن الكبيرة ، كان يدوس الحجر المدبب والأشواك الا أنه لم يقع ، وكانت عيناه عالقتين بالآلة الضخمة المتجهة نحو أرض البطيخ . فصاحت امرأة تحمل وليدها ضاحكة :

ولك يا عوج التراكتورة رايحة على أرض البطيخ .

وكانت أنفاس العجوز قد انقطعت فجلست تبكي وتضرب الأرض بكلتا راحتيها باستمرار وتنادي :

ـ يا محمود الحق أبوك .

الا أن الصغير كان يعمل في تعفير الزيتون فلم يشاهد أباه يطارد التراكتور الذي ألحق ببيته الخراب . .

ركض العوج فبلغ التراكتور الذي أخذ على حين غرة ، فأخذ قائده الأرمني يدور به وكأنه على بغلة جافلة، وراح المجنون يضرب حديدها بالصخرة الصغيرة التي في يده ، وركض بعض الفلاحين من ذوي النخوة ، الا أن أسنان التراكتور كانت قد دارت بثوب المجنون وطوته تحتها فتمسك المجنون بحديدها وراح يقضمها بأسنانه بينما تعجن ساقيه عجنا . . . وقبل أن يفطن السائق المذعور ، كانت الآلة قد عجنت ما بقي من خيرو العوج ،

وخلطت دمه بتراب أرض البطيخ . . .

كان اليوم ، يوم جمعة ، وفي مقهى « النجمة الحمراء » في حلب ، جلس أمامي صديقي المعلم شهاب يقضم أظافره قلقا « حائرا » ، وقد ثبت عينيه في زاوية حادة على حذائه ، وقد استطالت معالم وجهه بعد أن صبغته لحية مهملة كالهباب ، وعلى كتفيه حطت طبقة من نخالة قشرة رأسه فهي كنجوم المعرى على معطفه الكحلي ، ثم تأوه هذا الصديق المتعب وأخرج من جيب صدريته ساعة كبيرة وحملق بها لحظة وأعادها ، وأخذ يقضم أظافره من جديد .

كنت أراقبه كما أراقب الطريق ، فالشمس الخريفية باهتة والحياة كبقرة وادعة تمشي على مهل ، وانني أعرف أسبابا كثيرة لاحزان أمثالنا الكادحين . . ثم تحرك بعنف وأخرج من جيبه وريقة مدعوكة بنزق ، فرشها على مرمر الطاولة . وتعمد أن يجعلني أقرأها معه ، لقد كانت رسالة عادية ، من أخت الى أخيها ، فقلت له مازحا :

ـ هل هي أختك بحق وحقيق ؟

ـ . . . بلى . . من لحمي ودمي .

فضحكت وقلت :

ـ لعل دمك فسد في حلب . لم لا تسافر اذن ؟

ـ . . .

ـ دعني أقرأها بامعان :

أخي الغالي شهاب حفظه الله . اني مريضة غير قادرة على شغل البستان . أرسل لي مع حاملها ليرة سورية واحدة أو ليرتين ، وطوابع عرضحال مستشفى . ان أحسنت أحضر لطرفنا . بنت أختك فهيمة الصغيرة تبوس يديك الكريمتين . أختك المشتاقة والسلام .

الأمضاء : « عايشة »

ـ هل تصدق ؟ .

قال شهاب :

ـ أصدق ماذا ؟ قلت .

ـ اني لا املك ليرة واحدة اليوم ، ليس معي الا « شكلة المقهى » .

ـ ألم تقبض راتبك بعد ؟

ـ لا . فمحاسب المدرسة يعذبنا كل آخر شهر . .

ـ أختك ما مرضها ؟

ـ صدرها .

ـ لِمَ لم تدخلها المستشفى ؟

نحن من أهالي الباب . والأمر يتطلب وساطات . يقولون أن لا مكان اليوم ، تعالوا غدا . هكذا . . .

ـ وهكذا حتى يموت المريض . . معك حق ؟ لكن . . ماذا ؟ هل قلت لي أنها متزوجة . ولها طفلة ، أين زوجها ؟

ـ غرق في غراف البستان منذ أشهر قليلة .

ـ ألم تحصل لزوجته على تعويض ؟ ألم يقتل أثناء العمل ؟

ـ نعم . لكن المحكمة طلبت وثيقة أنه كان يعمل في بستان كذا . . ومن رب العمل بالذات . . و . . و . .

ـ فهمت . في الريف لا يعطون الفلاحين أمثال هذه الوثائق ، فللدابة وثيقة شراء وبيع أما للانسان فلا . . بامكاني اقراضك من المال ما يكفي لزيارة المريضة ، هل تسمح لي بمرافقتك فاليوم عطلة واني أحب الريف .

ـ كما تشاء .

هلم بنا .

وفي الأتوبيس قال شهاب أن أكثر الأغنياء كلاب استرالية متوحشة . ولم أحاول تكذيبه ، وكان الصباح قد ولى وجاء الظهر بمكبرات الصوت تجأر بكلام غير مفهوم على أنه أذان المؤذن . وشخرت السيارة الشاحنة ونق الدجاج تحت المقاعد وشرّت « أطرميزات » المخلل على الركاب من السقف وأدخل أحدهم معزى صغيرة معه ، وقردا خبأه في كيس ، وخرجنا من حلب تهب علينا عطور المزابل الشرقية من أحياء الفقراء في « قاضي عسكر » ومررنا بأكواخ اللاجئين فبدت كأنها معسكرات اعتقال وراء الأسلاك الشائكة ، ولم تصافحنا ريح تشرين الا عندما دخلنا منطقة الكروم ، كروم الفستق ، فالتفت شهاب وقال :

- قبر زوج أختي في بستان كهذا . .

- تحت الأرض أم فوقه .

. . قصدي تحت أكوام الزبل كهذه الأكوام . وأشار بيده عبر نافذة السيارة الى البساتين والكروم .

- هل أختك تعمل مكانه ؟

- نعم . بستانية ، لكن جسمها ضعيف . . .

- بل العمل في البستان مرهق فالأوساخ والوحل ثم ان غلة البستان تذهب الى صاحب البستان . . . وجميع بساتين الشرق قذرة ، انها مزابل عامرة

- في دمشق بساتين نظيفة . قال شهاب :

- لا أصدق . . لعل أشجار الجنة وحدها نظيفة واذا كان من المقرر أن يكون بستانيها شرقيا فأشجار الجنة وأزهارها كلها اصطناعية حتما .

فالتفت شهاب وابتسم لأول مرة وقال :

- ولم كل هذا التحامل على الجنة « شي حلو » في الحياة الدنيا جهنم وفي الاخرة أشجار اصطناعية . .

. . . فضحكنا ، وشق الأفق الشرقي عن ابتسامة مملحة الجبول الحلوة كسيف أبيض رقيق يبرق تحت الشمس ومن وراء السيف سلسلة زرقاء ، تلك جبال ما قبل نهر الفرات البعيد . .

- فاتح . .

ـ نعم .

ـ هل حقا نستطيع الحصول على تعويض لأختي ؟

ـ ممّن ؟

ـ من المختار .

ـ أي مختار ؟

ـ ألم أقل لك ان صاحب البستان الذي تعمل فيه أختي هو مختار الحي أيضا ، انه غني .

ـ الآن وضح الأمر ، فهمت معنى رسالة أختك .

ـ ماذا فهمت ؟

ـ فهمت أن هذا المختار لم يسعفه ضميره حتى ختم عرضحال المريضة مجانا مع أنها تعمل في بستانه . حقا انهم كلاب استرالية متوحشة . .

ـ الا تستطيع ؟

ـ ماذا يستطيع أن يعمل انسان بمفرده ؟ يجب أن نحارب جميعا هؤلاء الكسالى الذين يتمددون على حرير بينما الكادح يدفن في منزله مثل زوج اختك ، ما اسمه ؟

ـ سالم .

ـ أعرف سالما آخر . . مليونيرا . انظر أي فرق عظيم ما بين سالم تحت المزبلة وسالم فوق حرير .

ـ وانك تعطيني هذه المحاضرة مجانا .

صانا

سكت شهاب ، وكان الدرب الى مدينة الباب مملا ، فرحت أفكر بمصائر القطعان البشرية بينما كان صديقي يقضم أظافره ، وبدأت الهدم تتفتح كزهرة من أزهار الغضب ، زهرة جهنمية التصميم جميلة كبناء يسكنها زنبور ذهبي مخطط بالأصفر السام والأسود الرسمي وان أوراق هذه الزهرة من قصاصات شفرات جيليت . وعبيرها رائحة جنسية قذرة .

قلت له مؤكدا :

لا يحق لاختك الحصول على تعويض ، لا يحق ، هكذا تقول القوانين

فالتفت شهاب ونظر في عيني مستفهما .

قلت لا يحق لها ما لم تحصل لها على تلك الوثيقة والوثيقة بين أنياب كلب الرالي متوحش فتقدم حضرتك ، واحصل على المستحيل من أولاد الكلاب .

عاد شهاب الى قضم أظافره كما يقضمها كل العمال حين تسنح لهم فرصة التفكير ، وقال مغمغما :

- القتابة عوجا .

- لم لم تكسرها ؟ اكسرها . . اسحقها . . ازرع البذور في أرض لا تنبت الا الحلم .

وصمتنا حانقين .

وكان كل راكب في شاحنة الادميين يفكر بدوره في لون من ألوان

الكرب . أو كان كل واحد منهم مكروبا « أو ربا من أرباب الكرب والمسكنة والخنوع . وفي السماء الصغيرة عبر النافذة حلقت طيور ريفية زرقاء ، وبدت البراري حلوة مطمئنة فقيرة جدا . .

وكرت صور ريف المنطقة الشرقية الشاسعة أمام عيوننا . فرأينا أجمل سماء . . سماء ساكنة فوق قبر واسع نبتت فيه الأحزان عاما أثر عام ثم عادت فاندفعت فيه من جديد ، وهكذا تجري الحياة . . وتصورت أن هذه السماء الناصعة تابوت عتيق هرب منه صاحبه وداس الاوتوبيس في حفرة ثم خرج منها بعد أن خلط أمعاءنا . . فصحوت من تفكيري السماوي الخطر . ولم نبلغ قصبة الباب الا وكان صاحب الاوتوبيس السمين قد انجز عد غلته من الليرات السورية . وبدأ علينا نحن الركاب الفقراء اننا قطعنا أربعمائة كيلو متر لا اربعين . .

ونزلنا . . .

وكان مساء الجمعة هذا بدأ بفرش ذاته على الربوع كبقعة من زيت المعامل ، أو أن بدويا عملاقا فرش بساطه العكر هنا ، أو أن رساما من رسامي « الارت ـ مودرن » جعل مكنسة بدلاً عن فرشاة وراح يتلف هذا العالم المسكين التعب ، بألوان استعارها من عقب مقلاة أو بطن مدخنة ثم راح يمزجها ببقايا دم مسلخ ، فألوان تشرين تعصر قلبي ، فأشم احتراق قش البراري والأفق الشمالي عابس الجبين والغربي مجروح الخد وعلى الهضبات الجنوبية تطير أسراب من الغربان والبط البري ، وبدت لي المدينة كأنها معزوفة منشورة كثوب على أرض معركة مهجورة . ومررنا أمام دار البلدية ثم السراي ، وارتفع صف السرو الكئيب كأنما أحدهم يؤكد وجود مقبرة في هذين المكانين .

وسار شهاب أمامي في الدروب التي بدت كأنها منخرطة في الحواري المتداعية ، أو كأنها فجوات مبطنة بالخيش ، ومسدودة النهايات بتوابيت وأكوام من صوف القبور قبيل آذان العشاء . .

. . . وترامى لأسماعنا نهيق حمار مسائي يؤذن مؤكدا قدوم قوافل الأحزان الليلية ، ثم ختم نهيقه غير آسف على شيء . . فتنطلق الغربان أوتوماتيكيا بعد ذلك فوق المآذن بعد أن تدوي السماء بأصوات مكبرات الصوت المؤذنة بكلام غير مفهوم . ان المكبرات لعنة المدن وأصبحت اليوم لعنة جديدة في الريف ، فأين صوت بلال الانساني من هذه الأبواق التي أضحت أجراس الكنائس انسانية أكثر منها . وكدت أخلط في أفكاري حتى اذا انقطعت فجأة أصوات المكبرات عدت أسمع وقع اقدامي على تراب الدروب الملتوية و « شهاب » يمضي قدما أمامي ، وبلغنا الطرف الشمالي من المدينة الصغيرة ، فوقف صديقي أمام بوابة بلا باب كتب عليها أحدهم بحبر الكوبياء :

« هذا بستان الحوري لصاحبه الحاج فيض الله مختار المحلة الشرقية » .

ـ تشرفنا . .

ومررنا تحت رحمة قنطرة الحوري المتماسكة بحقد وذعر ، ثم قفزنا فوق جدول من رائب الروث وتجنبنا حاجزا من الأسلاك الشائكة ، وأضأت قداحتي كي لا نعثر ، فمزق السكون من أقصى البستان كلب رخيم الصوت جائعه . وتململت فوق شجيرات الرمان عصافير الدوري ، ثم عاد فشَرَطَ حرير الصمت صوت فولاذي لبومة تنادي « غريب . غريب » . . وكانت أشجار الجوز الغائبة في كحل السماء ترسم شبكة جوية وقعت في شراكها

مجموعة نجوم بنات نعش وقبضة اخرى من الأضواء السماوية المجهولة ، وفوق أصابع شجرات التين حطت نجمات تشع وتنطفيء .

ـ هذا هو الفرات . قال شهاب بصوت أبح .

ـ اذن اتق شر من أحسن اليك .

ووقفنا .

وقف شهاب أمام باب من الخشب الضيق ونادى :

ـ عايشة . . عايشة . .

ـ . . . .

وكانت الدار المستطيلة منخفضة الجناح قام حولها سور من أشواك اللوز المر .

وطرق الباب بيده ، فماءت هرة من الداخل . وخيل لي أنني أسمع بكاء صغيرا خافتا أو أن أحدهم يتنفس من أنف مسدود وراء الباب .

ـ انها مريضة ولن تغادر الدار .

ـ لعلها نامت . لعل جارتها . . .

ـ ليس لنا جيران . البستان بعيد عن البيوت .

ودفع الباب برفق فانفتح وصر صريرا أبح . فدخل ، وغاب في عتمة الدار .

بعد لحظات . . . . طويلة . . . أضاء الغرفة فانوس بعث الحياة في أطراف المكان ومسح العتمة بالنور .

وكان فوق الباب عامود نافر من السقف علق به إطار من الخشب بدا لي كوجه كبير مثقوب وسمعت طيران أجنحة وشممت رائحة اعشاب برية غريبة ، وخرج شهاب على عجل يدعوني أن :

ـ أدخل . .

دخلت . . وكانت لمبة زيت كاز نظيفة تمنح الغرفة لونا آمنا تطمئن اليه عيون أبناء المدن التي جلدتها أنوار النيون الفاخرة ، وخيل الي أن هذه اللمحة تنقلني الى طفولتي أيام كان العالم هادئا ، وعلى الأرض في صدر الغرفة نام أحدهم تحت لحاف أطلس سماوي اللون هرىء ونظيف ، وشيء . . . آخر كان يتحرك بقرب الجدار بني اللون ، طفلة ، وانتصبت هرة فتمطت ، وقوست ظهرها ثم اقتربت متثائبة من الطفلة ومسحت جنبها بها ، وعلى الأرض امتد حصير أخذ لونه من الزمن والتراب ، وعلى الجدار فوق جرة الماء الكبرى علقت تميمة من الحرمل لعبت بها ريح المساء ، وبساط كروي مقلم كان يغطي مجموعة من لوازم البيت ، هذا كل ما هنالك ، الا أن يدا باهتة كانت تبرز من تحت اللحاف حطت على الحصير . . بلا حركة . وانطلقت في جو من الغرفة نقاط رتيبة تسقط من مقر الجرة في طاس نحاسية ، فكان صوت رشح الماء يتضخم في هذه الغرفة كبالونات لا مرئية فاحتبست الأنفاس ، وحركت الطفلة قدما الى الأمام ، وانكمش صديقي شيئا فشيئا على نفسه قرب الفراش ، ورأيته يعبث باللحاف ، وتقوس ظهره ، وسمعته ينتحب بعد أن اخذ يضرب الأرض بقبضة يده .

أدركت أننا وصلنا بعد أن حملت تلك الرياح نسمة من هذا المكان . . . بعد أن تركت أثرا من رائحتها ، رائحة جسم غريب عن الأرض شد الذاكرة

الى ما وراء مقاييسنا لا بل شلها للحظات ، ثم عادت مشاعري الى عاديتها . وان يدا كانت تلمس قلبي . يد من خشب .

ـ أختي كالثلج ، يدها باردة . .

ـ لعلها الحمى ، أو عارضا ما . . أكشف عن وجهها

ـ لا أجروء ، أخشى أن . . . .

. . . . ـ

واستدرت نحو الطفلة وقلت لها بصوت أرعبني أنا :

ـ كيف حال ماما يا حبوبة ؟ .

فلم تتكلم ، وبدت الطفلة أمام عيني كعجوز قصيرة .

ثم درجت نحو كوة من الجدار وأخذت منها طوقا من الخرز الملون والودع الأبيض وتقدمت من خالها وألقت الشيء فوق اللحاف وعادت الى مكانها .

فقلت لها :

ـ أين لعبتك ؟

فدرجت نحو الكوة من جديد فأخرجت انبوبة حبوب وتقدمت من خالها ، متجاهلة إياي ،وألقت على الفراش بالانبوبة وعادت الى مكانها صامتة ترمقنا جميعا بوجه واحد . ثم استدارت ببطء وزفرت ودرجت نحو الكوة للمرة الثالثة وأخرجت منها لعبة من الخرق وعيدان الغاب وجلست مباشرة تحت اللمبة وراحت تعبث بلعبتها .

. . . . مد شهاب يده ببطء وكشف عن وجه أخته ، لقد كان وجهها

ناعم التقاطيع كأنه يغني أغنية صفراء غريبة المعاني ، أو أنه وجه نائم نصف نوم . وقد عصبت وجهها بمنديل صلاة أبيض اللون قبل أن تنام .

وافترت الشفتان عن آهة . وانتفض ظهر شهاب ، واقترب بوجهه من وجه أخته وأخذ يضغط على خديها بيد مرتجفة ثم تناول كفها من الأرض وأخذ يعصرها ، الا أن الكف سقطت من يده على الحصير تشير بسبابتها نصف اشارة الى شيء مجهول ، لقد كانت علامة الأبدية مرسومة بطباشير صفراء على الوجه ، ثم أن هذه اليد قد طرقت البوابة الثانية .

ـ ميتة ؟

هز برأسه نادباً ولم يجب .

ـ هل فحصت نبضها ؟ قلبها ؟ هل أذهب وابحث لك عن طبيب .

هز رأسه بصمت نادباً ولم يجب .

وكنت أعرف أن ما معنا من المال لا يكفي لاحضار طبيب فوقفت حيث أنا ، ولم يحاول الصوت يوما أن يخفي حقيقته . قال بصوت منتحب :

ـ انها ميتة . من زمان .

وأردف مطرقا :

ـ خذ الطفلة ، أخرج بها .

واستدار نحوي بوجه عنفه الحزن وقال باسطا كفيه :

ـ ماذا كان سيتم بجثتها يا ترى لو لم نحضر اليوم ؟ .

وأردف :

ـ البستان ملآن بالكلاب والهررة ، كانوا أكلوها .

ثم قال كمن يحدث متهما جميع البشر :

ـ ستأكلها الكلاب ، ستأكلنا الكلاب جميعا يوما ما .

ورمقت الطفلة بطرف عيني ، فكانت ساكنة تحملق بلعبتها ، فبدت هي الأخرى كلعبة ، ثم انتصبت واستندت الى الجدار ممسكة لعبتها من ساقها وأخذت تمسح الجدار بكفها وتحملق بنا جميعا بوجه واحد ، ثم قالت بصوت أجش لا يتناسب وسنها :

ـ ماما بدها مي . . .

بدا لي أن صوتها سيخرق الدنيا ، وخيل الي أن الألم الحائر في عقل هذه الطفلة الصافي مادة ثقيلة ، أثقل من كوكب الأرض برمته ، وأن صوتها اللحظة يعني ارتطام سكين ضخمة فوق عنق غليظة مجرمة ، عنق منتفخة الشرايين .

ـ ماما بدها مي . . قالتها بنبرة مشفوعة بأسى وخوف . فاقتربت منها ورفعتها عن الأرض وقلت لها :

ـ ماما نامت ، ولن تفيق الا اذا طلعت الشمس يا صغيرتي . انظري بعد قليل . وأشرنا الى النجوم . . . سيبزغ نجم آخر . . . نجم يحبه جميع أطفال الدنيا . وسأعلق على صدرك نجمة مثله . . .

. . . وأرسلت أبصاري عبر البستان الكئيب ، لقد كان العالم مهللا ، وارتطم بصري بالغراف ، وبدا لي أن السكون مادة .

ـ خذي قطعة السكر هذه يا بنيتي . .

وناولتها قطعة دروبس ريثما يطلع النجم .

* * *

. . . نهض شهاب بعد أن غطى أخته ، وحملت الطفلة ، وتركنا النور مضاء بعد أن أقفلنا الباب ، ورأيته يضع في جيبه ورقة وقال أنه وجدها مطوية تحت الوسادة . عرف أنها عرضحال ، فقر حال ، والتماس لدخول مستشفى الدولة غير أنه ينقصها الختم والتوقيع والطابع . . ورقة لم يوقع عليها المختار بعد .

* * *

مررنا بالغراف ثانية في منتصف الليل ، بعد أن اتخذنا قرارا دنيويا بشأن الميتة كيلا تأكلها الكلاب ، مررنا بالفرات فوقفنا زمنا أمامه حيارى والطفلة لاهية بورقة « السلفان » الدبقة تنقلها من اصبع لاصبع ، والقمر بهت في بستان الحورى يجر وراءه شبكة ضخمة من نجوم وأمانٍ عالقة بجميع الأفاق . . . فتناولت حجرا قذفت به الغراف فسقط في قرارته ، فانطلق منه دوي كآهة نهاية أغنية شرقية ناعسة ، أو كما لو أن نجما انفجر من مفازات الكون ، الى ملايين النجوم ، فأضاءت الدنيا تدعو جميع البؤساء من الكادحين في الأرض الى بناء عالم لا تأكل فيه الكلاب جثثهم بعد الموت .

النهر

كانت كرتان من الخرق تركضان على النهر ، فلا تستبين العين لهما شكلا ، وكان ظلاهما يقفزان اثرهما كدجاجتين مذعورتين ، والشمس تسيل نارا محرقة على كثبان الرمال ، وقد عكست بلوراتها آلاف الشموس الصغيرة ، والفرات العظيم تمدد كرداء ابيض مسجى من الشمال الى الجنوب الشرقي كأن روحا يقظى تسكن الرمال والماء والسماء .

وتوقف الشيئان وكان احدهما أسمر الوجه ناحلا جدا ، لعله في التاسعة من عمره شد شعرات رأسه الى اعلى بشريط احمر . فبدا وجهه ، كوجه خفاش .

أما الثاني فقد كان اكثر طولا ترك جديلتين رقيقتين على كتفيه ، حلو تقاطيع الوجه ، واسع العينين ، حزين الملامح ، وبما أن الشمس كانت في السمت ، فقد ارتسم على خديه ظلال مخططة لهدبين طويلين .

ضحك الطفلان لاهثين ثم قال احدهما لرفيقه :

- تروح تا نروح لأختي ؟ تروح وياي ؟ ومسح الجانب المزبد من فمه .

ـ لا يا خوي ، آني ابوي يضربني بالخيزرانة ، مقدر اعوم النهر فايض هالساع .

ـ ترى انطيك هاي ، واشار الى خرزة حمراء وحيدة جعلت بخيطها الازرق طوقا لعنقه .

فأمسك بها خليف ، وراح يتأملها بلا اكتراث ، كمن يعرف سلفا اثمان الاشياء ، ثم مسح حبات العرق عن ظهر انفه وقال :

ـ ما تريدها ، امي عندها جتير ، ثم نظر بعين الخبير الى النهر وقال :

ـ ي وال ما تخاف من الميه ؟ دحج ، واشار بيده النحيلة الى الفرات العريض وقد بدا تشوب بياض مائه حمرة الرمال ، وكان فوق الامواج الناعمة المتلاحقة ، لقلق نهري يحوم فوق الجزر البيضاء العائمة المشقق وجهها ، فراح الطفلان يراقبان طيران اللقلق صامتين ، وكيف يغوص في لجة الماء ثم يرتفع بعيدا .

فضيق الطفلان ما بين جفونهما ، وبدون أي جدل ، ركضا فجأة ، من جديد ، بكل ما في وسعهما ككرتين من الخرق تقفزان فوق اشواك الخرنوب والسوس ضاربين بأقدامهما شجيرات الطرفاء القصيرة النامية بين الرمل ، متحاشيين الحفائر الغادرة .

وترامى الى مسامعهما ، فجأة ، رنين جلاجل قطيع من الغنم بدأ يتسلق منحدرات النهر متجها صوب القرية فجثما وراء دعص من الرمل ، فشد عليوي ودن رفيقه خليف وهمس :

ـ يوال الراعي يشوفنا ، يضربنا .

فأجابه خليف محدقا بالقطيع :

ـ تعال نصيح مثل الذباب ، نجفل الغنم .

ـ يوال هذنا غنام الافندي

ـ الله يشبحه وش ينوينا من الغنم غير البعرور والعجاج ؟

واختبأ وراء الدعص .

وجثما كطائرين من الحجل وراحا يحفران في الأرض اللينة كخلدين ، ثم دفنا كتفيهما وارجلهما في طبقة رطبة من الرمل الجديد ، حتى اذا اقترب القطيع ، انتصبا مولولين كعفريتين نائرين الرمال في الهواء ، فانفرط عقد القطيع .

ـ يوال جانا الديب ، جانا الديب .

وتفرقت الاغنام شذر مذر ، وانتبه الراعي ولوح بعصاه في الهواء وصرخ .

ـ يوال يا عليوي ان دريت امك تدبحك ، ثم توجه بعصاه نحو العفريت الصغير خليف وصرخ مهددا .

ـ والله يا خليف لو الفندي دري موت ابوك من الجتل .

ثم أردف :

ـ يوال يا خليف يا مسخط ، والله ان وقعت بايدي اعجنك بالعصا .

ثم نصحهما بوجوب العودة الى الظل كيلا تشويهما الرمال ، وقبل ان يستدير انذرهما بان الفرات غادر .

فصرخ الطفلان بصوت واحد مرح .

ـ نريد نروح لحلب

وقال عليوي كالرجال :

ـ ريد اعود باختي خدوها الافندية تخدم عندهم .

وقال الصغير مؤكدا .

ـ اي . . حلب مو زينة نريد نجيب عزيزة من عند الخنازير .

فضحك الراعي منهما ، واستدار بقلع جزمته من الرمل ثم تناول نايه من جيبه وراح يعزف وراء القطيع الذي عاد فانسجم كأن لم يكن هنالك ذئب او عفريت .

اما الطفلان الصغيران عليوي وخليف . فقد شكلا ثوبيهما باسنانهما ، ودون سابق انذار استأنفا عدوهما من جديد ، ودارا حول الكثبان .

ثم انحدرا نحو النهر ، الذي انفرج امامهما عريضا متثائبا كالمارد ، لا نهاية له فقال خليف الصغير :

ـ يا عليوى الميه جانه

غاصت اقدامهما في الرمل الاسود المشبع بماء النهر واحسا بالرطوبة اللذيذة ، في هذا الجو المحرق .

ثم هبت عليهما نسيمات الفرات المخدرة

فقال خليف

ـ تسبح ؟

ـ اي ، قال عليوى . واردف :

ـ يوال ما تروح وياي لاختي ؟

ثم ارسل ابصاره عبر النهر حيث تقف سيارات الشحن والدواب والفلاحون ، على الضفة الغربية البعيدة ، كلهم ينتظر دوره في العبور .

فقال خليف مظللا عينيه بيده اليسرى مشيرا بالعصا الى النقاط السود المتناثرة على الضفة اليمنى :

ـ يا وللو يا عليوى ، اشقد الطرمبيل زغير .

ثم خشن صوته وقال مقلدا هدير المحرك :

ـ ولمن يمر بكترك تقول قد الجبل . .

ان نهر الفرات ، عالم تام الخطوط والمعالم ، حر كالقدر ، لا يعرف العداوة ولا يعرف الرحمة . نهر كريم اعمى بكرمه ، يأخذ ويعطي بلا حساب ولا يبالي ، كائنا او زمنا ، يجري وحيدا من قديم قديم ، وكأنه جاثم في مكانه ، يوسع من ضفتيه اذا شاء ويحسر ماءه عن الارض اذا شاء ، فهو عظيم كنشيد لا نهاية له ، رائع وعميق كالسماء .

الفرات جميل ككل كائن حي ، لا تنبت على ضفتيه الا ما يسمح به هو ، فلا يلبث ، في ساعة عبث ، ان يقتلع الكثبان ، والاشجار والدواب ، والناس والسفن ، فدنيا الجزيرة تخشاه ، فهو قدرها ، انه الام العظمى للخصب ، وهو حر ، فهو الفرات .

ان عالم الفرات تام الخطوط ، بريقه يخطف الابصار ، تحت الشمس ، تحت القمر ، فالفرات هادىء هدار ، متواضع وجبار ، كائنا مزجت بمائه

ملايين الغالونات من الدم . ورمال حمر ، جرفها من اقاصي الهضاب الشمالية .

ـ المي باردة ياوال يا خليف .

صرخ عليوى وهو يمس الماء بقدمه المتشققة .

ـ تخاف ؟

اجاب خليف هازئا . ثم تريث برهة .

وقال :

ـ تنطيني الخرزة ؟

ـ تروح وياي ؟

ـ اي اروح ، هات ،

فخلعها عليوى عن عنقه فتناولها خليف وتاملها من جديد وقال :

ـ رمها تحت الحصوة اخير ما ترتمي بالمي .

وطمراها تحت الرمل وكوما عليها مجموعة من الصوان المرمري ثم خلعا ثوبيهما وكوما عليهما احجارا كيلا تطيح بها الانواء ، وركضا كطائرين مائيين وتعالت اصواتهما المرحة ، وهما يضربان الماء بايديهما فغاص جسداهما ، حتى لامست اقدامهما القاع الرملي المتحرك . فتراشقا بالماء الموحل .

فصرخ خليف الصغير :

ـ يوال يا عليوى يا مهبول ، تعرف البنية العبطالية هالرقصت البارح في التعليلة ؟

ـ اي شنو صابها ؟

ـ هربت ويا ابن الشيخ المهبول .

ـ تريد تقول ويا مختار المهبول بوكرش .

ـ اي ، وضحكا ساخرين فقال عليوى منددا :

ـ عده الله يشبحهم .

واردف :

ـ يوال يا خليف ما تشوف مختار سمين مثل عجل العيساوي ؟

ـ اي . . اي . . وشرق خليف بالماء وصرخ قبل ان يغطس قائلا :

ـ عد علي اشقد اقدر « اطمس خلق »[1] .

وبدأ عليوى يحصي الزمن الذي سيستغرقه خليف تحت الماءمناديا على طريقة الكيالين :

واحد الله ، اثنين محمد ثلاثة بو بكر اربعة . خمسة ثم اخذ يسرع اذ خرج رفيقه لاهثا ، وقال ضاحكا :

ـ اشقد ؟ ميه ؟ .

يوال ما تقول ؟

ـ عشرة وخمسة واثنين

١ ـ اطمس خلق ـ يستعملها الاولاد للغوص والعد

ـ يوال ما تقول سطاعش اني ما « اوجل »[٢] لهين . .

ثم سكتا لحظة وراحا يرقبان الضفة الشرقية من جديد كانما يبصرانها لأول مرة ، محاولين التأكد مما يجول في خاطر كل منهما ، لعلها خواطر حزينة لهذا الشاطىء الاجرد .

ـ عليوى ؟

ـ اي

ـ صحيح اختك في حلب ؟ شنو تسوي بحلب .

فاطرق الصغير كمن يعرف ببواطن الأمور . ثم ضحك ضحكة ناقصة وقال معللا على طريقة الكبير .

ـ يقولون في حامض حلو جتير بحلب .

ـ عن الفندية ؟ الله يشبحهم .

اجاب الصغير واردف :

ـ اختك جويدة تسوي ثمانين نعجة حمراء حلابة .

امي بتبكي عليها وابويا يضربها ويقوللها عليش تبكين .

وعليش المرزلة راحت ويا الخنازير الافندية .

مو هين عالفرا اخيرللها ؟

ـ اختي عزيزة معلمة اخير منا كلنا ، تسبح زين .

ـ اوجل ـ اخاف

يا لله تا نروح نجيبها من الخنازير الحضر اكالين الكعك .

وكانت السفينة قد اخذت تتحرك ضد التيار ، تدفعها اذرع وسيقان حديدية لنوتية عمالقة ، وقد ازدحم ظهرها بالفلاحين ودوابهم والاكياس متجهة نحو ارض الجزيرة تاركة الشاطىء الشرقي وراءها يدور امام عيون الركاب كانه دوامة . فالتيار سريع وتردد في سماء النهر الصافية اغنية السفانين .

يالله يال ، بالله ورد ، رد ورد .

فقال عليوى مؤكدا :

ـ صحيح تروح وياي لحلب ؟

ـ حلب بعيدة .

ـ لا يقولون هي ورا هالظهره

ففكر خليف قليلا ثم تساءل :

ـ عجل عليش « ينحرونها »[1] بالطرمبيل ؟

ـ احنا نروح بالطرمبيل عالظهر .

ـ يوال ما تخاف يجتلونا .

ـ عليش نخاف ؟ نقول للشافيرية . اختي عزيزة بحلب وهما ياخذونا ، وناخذ من اختي عزيزة ورقتين ، ونطي للشافيرية اي ؟

١ ـ يبلغونها

ففكر الصغير مرة ثانية وقال :

ـ زين زين . الشافير تعرفه ؟

ـ اي يعرف ابويا .

وقبل ان ينهي عليوى تأكيداته كانا قد وثبا الى ظهر النهر واسلما جسديهما الصغيرين النحيلين للتيار فحملهما كريشتين ، وقلبهما التيار وبعد لحظات كانا قد فقدا السيطرة على الماء . وخامر قلبيهما الواجفين خوف شديد فقال خليف صارخا وهو يضرب الماء :

ـ يوال يا عليوى بالله تنرد ، اليه حده

ـ امش تنرد . صرخ عليوى يائسا .

ونال التعب ومعاكسة التيار الشديد من قواهما ، وما قواهما ؟ رقاق من الخبز والشعير وجرعات من الشنينة وحفنات من جرش الحنطة والعدس ، او كباب من الهكط والبكل .

وارتفع نداء من الشختور مهيبا بالسابحين ان يعودا ثم صرخ احدهم ان في الماء طفلين غريقين . وكان الرأسان يتناوبان الغطس فتبين كف وتغيب اخرى ، واراد خليف ان يقول :

ـ يا خويا يا عليوى جاني ابو عرج . الا ان الماء كان قد خطف عبارته . واستطاع عليوي ان يختلس نفسا فصرخ :

ـ يا خويا يا خليف انت . . . تشوفني ؟

ودفعهما التيار نحو الشختور وكانت السفينة على مرمى حبل منهما فتناول

احد النوتية حبلا ونزل الى الماء وتشبث كل من في السفينة بالمردق[1] الطويل محاولين امساك السفينة في الماء ، ريثما تم للاعرابي التقاط الصبيين ، ودار التيار دورات سريعة ، وارتفع عويل النساء في الركب وهزت الدواب رأسها كانما تعرف ما يدور حولها فصرخ السفان :

ـ « تشعث »[2] واحد . ورفع الشيء الى اعلى كأنه سلحفاة مائية وصفعه على صدره ، ثم قلبه رأسا على عقب ممسكا برجلي الطفل الغريق وكان عاريا كأنما النهر ولده لتوه .

وصرخ ركاب السفينة :

ـ بي يا سفان واحد آخر . هم اتنين .

ـ عده . قال السفان . ماني شايف غير واحد الله يقطعهم ، ويقطع اهلهم .

وتحرك الركب بالطفل اللاهث وقد تناوبته الركلات والصفعات على بطنه وظهره وقد تمكن الجسد الصغير من افراغ ما في جوفه من ماء عكر فصرخت امرأة :

ـ ياربع هادا أن ما الله خيبني ابن شعباوي . هاد خليف . من تل ضيعة . وفتح الصغير عينيه ونادى كمن يستيقظ من حلم رهيب ، ونادى بصوت مقلوب

١ ـ عصا طويلة يستخدمها السفان
٢ ـ تمسك

- يا عليوي ، ما تشوفني قبضني ابو عرج

فصرخت المرأة تضرب كفا بكف .

- شوفو المسخط جاعد يصوت لربيعه الطامس .

وسمع خليف كلمة طامس فنهض على مرفقه ورمق النهر الساكن ورأى الضفة الشرقية تدور امام عينه فاغمضها ورأى بدوية تشير اليه باصبعها ان عد ، عد الى اهلك ، وتلقي عليه رشقة من النهر ، ثم غاب الوجه ، وسمع صوت عليوي يدوي في اعماق اذنيه .

- انطيك الخرزة ، الحمرا . ثم غاب الصوت .

وبلغت السفينة الشط الرملي الاسود وامتد حبل طويل من الرجال يسحبون السفينة الى مستقر لها ، على ظهورهم وتهادى القارب الخشبي الغليظ ثم سكن فبدأ الناس بافراغ حمولتهم على ظهورهم من خراف واكياس ودجاج ، وسحبت المرأة الطيبة خليف من يده ، وانزلته بعد ان لفته بشملتها وقالت صارخة به :

- وين هدومك يا جلب .

فسار الصغير امامها ككلب مذنب وقد شيعها الركاب بعيون فيها الالآف من المعاني الجامدة كهذا الحصى الكبير وعندما بلغ الصبي كوم الحصى تناول جلبابة وارتداه ثم حمل جلباب عليوى تحت ابطه ، ثم سار نحو كومة من الحصى وحفر في الارض ونبش الخرزة الحمراء ، وجمع خيطها حول معصمه وسار نحو القرية وحده مطرقا يفكر .

كان الدرب وعرا من قرية « حاجي خليل » الى « راجو » وهو يزداد وعورة كلما لكز « رشو » حماره المثقل بالغلال التي قايض عليها في القرى الجبلية المتاخمة لناحية « راجو » ، وتبين للشيخ التعب أن حماره كلما تقدم خطوة الى الامام ازداد جبل « كموش » انتفاخا وعتيا ، فيرفع كلاهما رأسه بالترتيب ليريا هل ظهرت شجرة البلوط الكبيرة للعيان ، ام هي بعد بعيدة ؟ وهذا يعني انهما لن يبلغا راجو قبل المغيب .

وتبين لرشو وهلة ، انه كلما تقدمت به السن ازداد إحديداب ظهره، واشتدت مسالك الارض امامه شراسة ، فتنتفخ الارض من هنا حيث كانت بالامس وادعة منبسطة ، وتنخفض من هناك حيث كانت من قبل ناعمة كراحة اليد لينة ، فراح يحدث نفسه بأسى ، ويصف معلمه « ابو عمر » وصفا اضافيا دقيقا غاب عن فهم حماره « كورد » حتى اذا تجسدت صورة ابي عمر برمتها امام عينيه ، بصق على الارض . فهو قاس لا يعرف الرحمة ، كهذا الجبل عملاق صعب بلا قلب ، واقلع البائع المتجول عن التفكير برهة ليلتقط انفاسه ، وبرزت الشجرة الضخمة بين الصخور السوداء على

كتف الجبل ، فلهث لهثات متتابعة ، ونادى شخصا وهميا بجانبه :
ـ نازة ، يا بنتي ، آه يا ناز . .

ومس قفا حماره بطرف عصاه المدببة فاستجاب هذا لمعنى اللكزة، واتجه نحو الظل ، لقد كانت الظهيرة طاغية باغية ، وعندما استكانا للفيء قال الشيخ لكورد : « ماذا لو متنا هنا ؟ » وسحب الشيخ نفسا عميقا ملوثا بالحسرات واردف ينصح صاحبه قائلا « انا لا امانع في ان ادفن بجانبك يا كورد . . . لعن الله والدينا » ويتصور هذه الجبال القرعاء خاوية يزعق على عروشها الصخرية البوم ، وقد ذابت هذه القرى فلا تغريدة لتوتي ، ولا جأرة لضبع ، لان العمر حقير على هذه التربة الخسيسة ، واسند ظهره الى الجذع الضخم يمسد قدميه المتورمتين ، بينما راح الوادي الغربي السحيق يكشف امام الشمس مجموعة من البيوت البعيدة ، وغرق صاحبنا في بحران من الصور الثقيلة التافهة ، فضرب الحمار الارض بقائمتيه محتجا على معاملة صاحبه السيئة له ، فهو لا يزال يحمل البضاعة ، فنهض رشو يحشر قدميه في حذوته فلم يستطع لانهما كانتا قد تورمتا تماما ، فوضع حذوته على ظهر الحمار فوق اكياس الحبوب ، وانحدر يجر حماره بحذر في تلك المسالك الدوارة الخطرة .

ومالت الشمس نحو لمواهق « قروداغ » وبدا وادي العمق مغمورا باقيانوس رائع من اضواء زرقاء متكسرة لا نهاية لاغوارها ، وفي قرارة الوادي الاسود جرى ثعبان نهر « قره سو » الذهبي ، واشتد هدير قطار استانبول ، وصفت نبضاته في صدر الوادي بينما يتسلق جبل كوش متجها نحو الشمال . . الشمال البعيد . فقال رشو لحماره :

ـ ماذا ايها الوغد ، لو كنا محملين على ظهر هذا العفريت الى الشمال ، يقولون ان هنالك وراء بلاد الترك ارضا خصبة اهلها طيبون . آه لو حملوني الى هنالك . .

وسحب كفه على جرح قديم في عجز حماره عندما بدأ السكون ينمو رويدا رويدا على ايكات البلوط القريبة ، بينما اخذت طيور الفأل السيء امكنتها على الاحجار المتاخمة للدرب ، فتمت بذلك عناصر صورة الوحشة في نفس رشو ، ونبعت همسات مريبة من اشجار البطم ، فرشو رجل يحب السلام ، وعليه اذا ان يقرأ الفاتحة وان كان لا يتقنها ، فقرأها وانهاها « وعلى اموات نحن اهبون يا رب العالمون . . آمين » . . . وسار الحمار .

* * *

تموت القرى الصغيرة والكبيرة اذا ما غابت الشمس ، فالاحمر الذي يصبغ شفرة الأفق كل مساء يرعب عيون الفلاحين في هذه البراري التي لم تعرف السلام يوما . وهذا ما حدث لقرية « راجو » فاغمضت اجفانها الكثيرة ، وكانت قد نامت عندما بلغها رشو ، وأحس ان يد الليل تتغلغل في عقله وتمتد الى قلبه ، وشعر أيضا انه وجد مع حماره كورد على ظهر هذه الارض ، وان سلسلة ضخمة تشده الى عملاق كهذا الجبل هو ابو عمر ، وتصاعدت الى فمه رائحة الجوع فقال في سره : ماذا يستطيعون ان يفعلوا مع كومة من القش العفن ؟ انا أمسيت تلة من تراب كما يقول صاحبي مصطفى البدوي . وخطر بباله أن يعرج الى عشته عسى ان يتبلغ بلقمة ، ولكنه فضل تسليم الغلة لأبي عمر أولا ، فاخترق ساحة البازار المقفرة الا من كلاب اقعت

ترفع عقيرتها بالغناء الكلبي الموحش كأنها تصلي لرب من ارباب القتل والتدمير . ودارت به الازقة المتربة حتى اذا جاء الى باب زين بطلاء ازرق نقش بوشم يدرأ عنه عيون الحاسدين وعلى الجدار كتب احدهم « وما سكان الله » . من كل هذا وعى صاحبنا ان ابا عمر ينعم في بحبوحة طيبة من العيش وانه يرشح نفسه لزيارة البيت الحرام ، فهز رأسه ونظر الى كفيه المشققتين واستتاب ربه وطرق الحلقة النحاسية وجلس :

ـ كم او ؟ مينو هاده ؟ آ . . .

وكان الصوت المنبعث من وراء الباب لا يشجع احدا على الاجابة ، فهمس الشيخ « اما فاجر ! » لقد كان ذلك صوت تلك المرأة الشريرة التي تدبر للحلبي شؤون بيته وتحثه على استخدام ابنة رشو ، وفوق كل هذا ، تسمي نفسها « بالحجة » مع علم رشو الاكيد انها . . . وفتح باب الدار فاستدار الشيخ فرأى وجها صالحا يليق باستقبال طارق الابواب مساء ، فغمغم رشو مطرقا : « ابو عمر جاغير » اي نادلي ابا عمر ـ وحطم السكون زعيق الحاجة فاطلت رأس مستديرة من طاقة فوق الباب حجبت باصص الريحان ، وتكلم وجه مكتز ضاقت معالمه في شاربين تركيين قذرين وخدين عجينيين ، فرفع رشو رأسه وهب واقفا على عكازه .

ـ هارشو ، رشو لم التأخر ؟ كيف البيع ؟ واختفى الرأس وصر وقع قبقاب سريع على الدرج فارتجف قلب العجوز اعياء ، وانفرج الباب عن شيء ضخم وقال :

ـ كام ؟ نص شتيل ، شتيل ؟ اكثر ؟ . .

فأجاب رشو تعبا :

ـ جانم كل ماعلى « كورد » هولك فلماذا السعال ؟ (اي السؤال) .

وما دامت لارباب العمل لهجة واحدة معينة في جميع اطراف الارض المستعبدة ، كان لابي عمر لهجته الجافة ونظراته المتهمة فقال :

ـ رشو ، اسمع ، عليك ان تبادر الى تسديد مالي عليك من ديون قبل أن تقبل كوانين ، فالشتاء على الأبواب .

وأدرك رشو ان صاحب العمل اراد ان يقول : « قبل ان تموت يا رشو » ، فسلمه الكيس الأول والثاني والثالث ، ففحصها التاجر وقذف بها الى داخل الحوش بعد ان زانها بتقديره مؤقتا . واضاف :

ـ رشو ، لقد أصبحت عجوزا هرما لا يستفاد منك . انظر الى احمالك ما أخفها .

ولما هم رشو بان يجيب وقعت عيون ابي عمر على حزمة من البصل النتن مستقرة في قعر احد الصندوقين الخشبيين . فزعق :

ـ ما هذا ؟ بضاعة كاسدة ؟ ألم تبعها ؟ فقال العجوز بهدوء :

ـ الكلاب تأنف من أكلها .

ـ هه ، انت اعلم بهذا مني ، سأقيدها على حسابك . .

وأضاف متهكما :

ـ اسمع يا آغا ، انك شيخ خرف عاطل لا تصلح لشيء . .

واشار الى حزمة البصل وقال :

ـ ستأكله أنت . انه مسجل على حسابك . . على كل حال . اليس كذلك ؟

فأطرق الشيخ ومسح الارض بابتسامة ذليلة بينما اختفى ابو عمر وراء الباب .

ثلاثون عاما قضاها رشو في خدمة هذا المرابي ، لقاء ايفاء مئتي ليرة سورية كان قد استدانها منه ، وكلما طمس رشو جزءا من هذا الدين ، ازداد في اليوم التالي . فحمل عصاه وجر وراءه كورد ومضى يحمل حزمة البصل تحت ابطه .

وقف الزميلان في عتمة الليل أمام كوخ ارتفع بضعة اشبار فوق الارض ، ثم استدار احدهما ورفع عن الثاني بردعته فبدا جرح كورد الدائم فوق ظهره احمر ملتهبا ، فرش عليه صاحبه قليلا من تراب الجدار النظيف ، ودفع الباب ودخل .

كانت ابنته الوحيدة « نازة » نائمة في ظلمات عريقة : ـ نازة ، نازة ـ ابا قزه (انهضي يا بنيتي) .

(تاهات بافي) ؟ (هل اتيت يا ابي ؟)

ونهض الصوت كأنه حزمة طويلة من عيدان الحنطة لم تلبث ان حولها الظلام بعصا ساحر الى صبية لم يستطع الفقر والليل من طمس معالم جمالها الأغبر ، واضاءت سراجا وقدمت لأبيها علبة الرائب وجلست قبالته تمسح الأرض بكفها ، ودار حديث قصير بين الاب وابنته تبينت الصبية منه ان

والدها يموت مساء كل يوم ولا يلبث ان يعيش بقدرة قادر في الصباح ، وتبين الوالد ان ابنته نامت جائعة وبدون زيت كاز ، لقد رفض المرابي تقديم حصة البترول هذا المساء لتراكم ديون والدها .

ـ سأموت يا ابي لو صممت ان تستسلم لهذا الخنزير ، انه سيبيعني الى « جمعة آغا » كيف الم تفه دينه خلال هذه الاعوام الطويلة ؟ انه فايظجي (مرابي) والحكومة لن تسمع كلامه ، اليس كذلك ؟ فتمدد العجوز كلوح من خشب ، وانطفا السراج كأنه على موعد . هكذا ينام عبيد ابي عمر . .

وفي الصباح قال ابو عمر لاجيره رشو :

ـ خير حل ، لقد قبل جمعة آغا بأن يسدد دينك . . . يا له من رجل شهم .

ولم يستطع رشو أن يتصور كيف تشرق الشمس على امثال ابي عمر طالما الله هو الذي يجعل الشمس تشرق ، واشار المرابي الى اجيره البائع المتجول وقال :

ـ هذه حصتك اليوم ، اما المكان فقرية درويش آبه سي ،وحك ابو عمر رقبته الضخمة ونظر في وجه أجيره الكردي الذي انكمش كما لو انه قطعة من الورق تحترق ، فقال العجوز :

ـ لا استطيع تسلق جبل « موسى كوى » يا آغا ، ثم ان كورد جريح ، فزوى رب العمل ما بين عينيه النسريتين ورماه بورقة حساب البضاعة التي عليه ان يقايض عليها اليوم من صابون وخيطان وسكر احمر للاولاد وأقمشة فلاحية رخيصة وأوانٍ فخارية من كل حجم . . . وأدار ظهره له ومضى .

نظر رشو الى قفا مستعبده ، فبانت طيات عنقه الشحمية كما لو ان حبلا غليظا من ليف وسخ قد استدار باحكام حول هذه العنق ، واستراح رشو لهذه الصورة وقال بسره « سيشنقونهم يوما ما وستستريح راجو » ، ثم بسط كفيه نحو القبلة ورفع ابصاره الى السماء والقى عليها سؤاله الأدمي العتيق « الى متى يا رب ! » ثم حمل بضاعته المرزومة ومضى غربا نحو وادي السراسين .

واشتدت وطأة الحر على الحمار ومرت جماعة من قرية « الكورانلي » في طريقها الى بازار راجو ، مما حدا برشو ان يفيق من غفلته ويتساءل « اليوم هو البازار في راجو » وسخرت الجماعة من البائع المتجول الذي يغادر البازار اليوم ويسير غربا بينما الناس يسيرون شرقا ، وادرك في الامر لعبة تلعبها براثن أبي عمر ، فخفق قلبه توجعا على وحيدته نازه ، وبرقت في خياله المكدود صورة لوجه كريه آخر وهو وجه « جمعة آغا » وكان الحمار يسير فسار رشو ، وامحت الظلال ساعة الظهيرة عندما بلغ قرية « موسى كوى » التي ابى الفلاحون الا تسميتها « بموسكوي » نكاية برجال الجندرمة . ومن موسكوي ابى احد ان يشتري شيئاً من هذا البائع الخرف الذي يتحمل مشقة المسير غرباً بينما الناس يسيرون شرقاً الى البازار ، وتلطفت العجوز « دنده » بأن سقته طاسا من العيران فقدم لها بدوره مجموعة من ابر الخياطة ، ورماه صبي بقطعة من الخبز اباها الشيخ على نفسه ، وسار بحماره خلال صخور البازالت من منحدر الى مرتفع ، حتى اذا بلغ وادي « الكاور » مر بالسماء طائر عظيم اصفر حلق برهة فوقها فقال العجوز « انظر انني لا احمل دجاجاً معي » فصدقه الطائر العظيم واختفى وراء مجموعة هائلة من الصخور . . . وعاد الدرب يرتفع من جديد كأنه جدار قلعة سجن غارقة في احراش البطم والسنديان ، حتى اذا بلغ

هامة الجبل انكشفت امام عينيه سهول عفرين وهبت انسام وادي الكنخ ، وعلى مرمى سهم منه كانت ضيعة « درويش آبه سي » تغرق في كروم التين والعنب واللوز ، وصافح سمع رشو دوي طبل نزل ثقيلاً على مسامعه وانفاسه ، فمر بجانب مزابل القرية فلحقته الصبية تعض على اطراف اثوابها باسنانها تعدو قدامه ووراءه ، ومر بفلاحتين همستا : « لعله هو » ولم تعجبه العبارة . وبلغ ساحة القرية وشرب من الجب مع حماره ، ثم عرج الى دار بوظان آغا ، لقد صمم على امر ، لعل هذا الرجل يستمع الى شكواه فينصفه من ابي عمر ، وامام باب « الاوضة » خلع حدوته ، واسند عصاه الى الجدار وتسلق درجات « الاوضة » ودخل .

وكانت القاعة مكتظة بالزائرين ، الا انه لمح اثنين من الجندرمة من مخفر راجو ينظفان بندقيتيهما وينفخان ماسورتيهما إرهاباً للفلاحين !! وبادررشو القوم بالسلامو عليكوم ، وتهافتت عليه السلامات من كل فج وصوب حتى احتار صاحبنا ايهم يجيب ، ولكنه جلس وراح يمسح القاعة بانظاره الكليلة بالترتيب فهذا بوظان آغا ، وذاك الحاج فريدون ، وذاك ، وحملق رشو بذاك ، ولم يصدق عينيه ، لقد كان ابو عمر بعين امه وابيه . . فأي شيطان حمله الى هنا . فانكمش على نفسه حسب عادة الاجراء والمستخدمين واسقط بيده ، فلا بوظان آغا بنافعة اليوم ولا هذان الدركيان ، طالما كانت فائدة قد جمعتهم . . وبينما هو غارق تحت مزراب اشجانه ، تصاعدت همهمة « سلامو عليكوم » اخرى ، فاستدار رشو وكان جالساً بجانب الباب قرب مجموعة عجيبة من النعال ، فرأى رجلا يحمل على انفه نظارتين لبس طربوشا كالذي على رأس ابي عمر ، وسمع احدهم يقول « اهلا اهلا بجمعة آغا »

حتى ان احد الجندرمة اراد ان ينهض احتراماً له ، وعندما ابتعد هذا بظهره عن مرمى انظار صاحبنا رشو الكليلة ، رأى رجلا عجوزا يعدو الى صدر القاعة ويجثم امام ابي عمر ويبدأ بعد عدد ضخم من الليرات الفضية . . فران على القاعة صمت مالي غريب : خمسون ، مائة وخمسون ، . . . هذه مئتان . .

ونهض ابو عمر نحو رشو وسحبه الى خارج القاعة وهمس باذنه ـ مبارك عليك . . فقال رشو مشدوهاً :

ـ ماذا ؟ لماذا يا بو عمر آغا . .

فضحك هذا من غفلة الشيخ وانحفه بابتسامة مغموسة بقهقهة شيطانية وقال :

ـ اترك الحمار هنا يا رشو ، سآخذه معي . وربت المرابي على ظهر رشو واضاف :

ـ اذهب . . انت حر الآن يا رشو آغا .

الطفلة الحدباء والجمران

ـ الطبيعة في هذه الجرود تصرّ على أن يفكر الناس مثلها ، جنون في جنون ، لا منطق للطبيعة هنا . تأمل منظري ووضعي وأشار الى جسده البدين ولحيته القصيرة البيضاء باصبع ذات حراشف . كل شيء تلونه الطبيعة كما تريد ، كما تجاري الحرباء بألوانها محيطها .

ـ ابونا . . اني احب هذه الجرود ارى فيها الواناً تغلف عقلي وقلبي بهدوء وراحة لم اجدها في اية بقعة من العالم .

ـ انتبه لا تنادني ابونا ، ليسمعك احد . الم اقل لك كيف ان الطبيعة تلوّن الناس بما تشاء .

ـ . . . لا تحزن هذه الحبال تشبه كثيراً كتدرائية عظيمة .

ـ صدقت اني اصلي الآن في الفلاة ، اصلي لابنة اخي المسكينة .

ـ تعيش معك ؟ اين امها ؟

ـ تركتها ، بالي مشغول عليها هذه الايام ، تراها دائمة البحث عن شيء في زوايا البيت ، لم تشأ أن تقول لي عمّا تبحث ، هذه الطفلة الحدباء كل ما تبقى لي من الدنيا .

كنا نجلس على المنحدر الجبلي قريباً من داره الصغيرة في هذه الفلوة ، دار خارج حدود القرية .

ـ سيرعاها المسيح .

جبعدين من قرى جبال القلمون في غرب دمشق لا تنبت ارضها إلا الازهار البرية القاسية والشعير . وإن أشجار التين القليلة الباقية هي المعالم الوحيدة لوجود الانسان ، هنا عليك أن تمر في حزم بين جبلين عاليين لتبلغ القرية التي لا يرى منها شيء وانت على الطريق العام .

قرية جميلة التكوين في عين الرسام كأنها عش زنابير معلق على سفح صخرة عالية ، تدور دواليب الهواء لضخ المياه من الآبار العميقة ، بيوت متساندة بعضها إلى بعض تحتضنها تلال كالقباب . وعندما تهب رياح منتصف الليل تبدأ الدواليب بالأنين .

هذه القرية محصنة ضد الغزاة لها مدخل واحد ضيق ربما كان من صنع الانسان القديم ، فهي كالفراغ بين ساقين خشبيتين لعملاق صدره مجموعة من تلال كالقباب الضخمة أما رأس العفريت فلا تراه إلا في ليالي كانون حيث يهبط الرأس ببطء .

تجمع الزمهرير بين ساقيه . فتقف دواليب الهواء وتكف الكلاب عن العواء ، وعند منحنيات خط الأفق العالي نرى الذئاب مقعية كبقع سوداء خلفها تلمع نجوم اصفى سماء في العالم .

ـ ليغفر الله لنا وليبارك هذه الأرض الضائعة بين الجبال كأن السماء تجهل وجود الانسان في هذا الكون .

ـ انت حقاً قس ثائر يا ندرة .

ـ هل رسمت صوراً عن المسيح ؟

ـ كثيراً منها في المتحف الوطني بدمشق وبيروت وأوروبا . احب شخصيته .

ـ انت فنان مر كما أرى . انت مسلم أليس كذلك ؟

ـ . . . عندما اعيش في أرض جرداء أرى الله بجانبي ، فهو ايضاً يهرب من الناس . الله لم يعد يحب هؤلاء الأوباش .

ضحك الخوري بلا كنية وقلت :

ـ اني اصلاً من الشمال السوري حيث التراب اكثر كرماً . هنا أشعر انني عاشق لامرأة طرشاء .

ـ انت حسن الحظ . وضحك .

ـ هل ندخل الدار ؟ بدأ الهواء يبرد .

وكانت الدار على بعد خطوات من المنحدر . تقع على جرف لوادٍ لا شجر ولا ماء فيه ، إلا شجرة واحدة مزينة بأزهار صفراء لا تزهر إلا في الخريف .

كان البيت الذي أراه غرفة واحدة وباحة صغيرة تسورت بصخور بلا ملاط ، له باب خشبي صغير كما أرى ، وقبة صغيرة هي تنّور البيت . وعندما اقتربنا من السور لمحت رأساً اشقر يظهر ويختفي كلما اقتربنا منه .

لقد طرد هذا الخوري منذ زمن طويل من كنيسة في احدى هذه القرى الضائعة بين الجبال لايوائه شاباً تطارده القوانين ، من الصبيان المراهقين الذين افسدتهم الأموال التي يتصدق بها أهل لهم في امريكا اللاتينية ، غاب الغلام المراهق أما الخوري الطيب فعاش في مقر مدقع .

هذه القرى المعدودة على اصابع اليد الواحدة في قلب سلسلة جبال

القلمون نسيها الله منذ زمن ، حتى جاء العثمانيون يجندون الشباب بأسواطهم في قطع الغاب واتلفوا حتى اشجار الفاكهة ، فهاجر من هاجر الى امريكا الوسطى وتركوا وراءهم هذه الجبال بدون جد ، جبال وردية تصبغ وجوه الفلاحين بطيف بنفسجي كما تلون اجساد النساء بلون اوراق الورد وفي الساعة الثانية عشر ظهراً . في الصيف تأخذ الارض والجبال لوناً شمعياً شفافاً كأنها مضاءة من الداخل ، عليك أن تقف خاشعاً أمام جلالها . إنه القلمون المليء بالأسرار ، أسرار لا يجرؤ ابن آدم على هتكها ، وفي الساعة الثالثة ظهراً يتحول اللون إلى صدأ قديم مذهب ، وتلعب الرياح لعبتها مع التيجان الصخرية فترسل حجارتها إلى الأودية كما يلعب الجن تماماً .

وعلى السفوح حفرت ارجل الدواب دروباً تصل بين قرى السهل وقرى الجبال ، من رنكوس مروراً بعسّال الورد ، والى جبعدين ، معلولا ، ونجعا إلى رأس العبد ، الى الشماس ، الى جريجير ، هذه القرى وغيرها التي لا يراها إلا الطير تذكرني بقرى الشمال الضائعة في مرتفعات طوروس الجنوبية ، وما أن تضع قدميك العاريتين على الصخور حتى تشعر بأنك على اتصال مباشر مع قلب هذا الكوكب .

دفع الخوري الباب، دخلنا الدار واستقبلتنا طفلة صغيرة شقراء الشعر تمسك رغيفاً بيد ويد في جيبها ورفعت رأسها بصعوبة تتفحص .

ـ هذه هبة ، واسمها الحقيقي هلفى ، سلمي يا هلفى

ـ . . . اطرقت . ثم استدارت وركضت باتجاه باب الغرفة الوحيدة في المكان .

الخوري ندرة ، تعرفت عليه منذ اسابيع في القرية ودعاني لزيارته ، ولأول

مرة ادخل داره ، ولم أكن ادري أنه يعيش مع هذه الطفلة . وشد انتباهي ذلك الاحديداب في ظهرها ، انه تحدُّب شديد لعظام اعلى الظهر بحيث ثبّت الرأس بين كتفين غائرتين وقفص صدري مضغوط من الاسفل ، أخذ شكل حدبة من الامام واخرى اكبر واخطر من الخلف، فبدت البنت التعسة قصيرة جداً بذراعين طويلين ، إلا أن وجهها كان جميلاً جداً بعينين خضراوين ، وكيلا الفت انتباه الخوري إلى ما أرى رحت احدثه في الموضوع الرئيسي الذي يحبه « التاريخ » .

ـ هل مرّ التتار من هنا ؟

ـ هنالك بعض القرى لم يصلوها ، لعلها فقيرة جداً .

ـ والعرب هل مروا من هنا ؟

ـ نعم كانوا اخلاقيين مع الفلاحين والرهبان ، كانوا ينظرون باحترام الى الاديرة والرهبان .

ـ هذه القرى تتكلم لغة المسيح كما قرأت ؟

ـ الم تستمع إلى حديث الاطفال ؟ إنها الآرامية تعيش في كنف امها العربية .

ـ لغة ما زالت حيّة على افواه الأطفال. نعم لقد احببت هذه القوة من الديمومة .

ـ بل قل هي من العربية جذوراً .

ـ اذكر عندما ترجم إلى اطفال معلولا اسم لوحتي « منتصف النهار » .

ـ كيف ؟

ـ ترجموها إلى « فلك اليوما »

ـ طبعاً فلك هو الشمس ، اليوما هو اليوم أي شمس النهار .

ـ يدهشني حبك لهذه الأرض الفقيرة ـ قل لي ماذا ترى فيها ؟

ـ هذه الفلاة تصلني بشكل مباشر مع المجرات في الكون ، وفي لمحة واحدة .

ـ احببت جبعدين اكثر من معلولا ، إن الازهار البرية هنا صانها فقر الارض .

ـ دعنا نتناول الشاي ، « هبة » ستشرب معنا كوباً اليس كذلك يا ابنتي ؟

هزت الصغيرة برأسها وجلست مسندة ظهرها بصعوبة الى الجدار ومسحت الأرض بكفها كمن يبحث عن شيء . في اليد الاخرى تمسك بعلبة كبريت .

ـ هذه هي هبة ابنة اختي ، اليست حلوة ؟

ـ حلوة كثير . هي هبة ام هلفى .

ـ هلفى . هي تحب هذا الاسم ، هل اطعمت الدجاجات يا هلفى ؟

هزت الصغيرة برأسها ولم تجب .

ـ الا تخشى صخور هذا الجبل أن تقع وتسحق هذه الدار ودجاجاتها ؟

ـ لا يهم . القرية هربت الى الداخل انا وحدي هنا ، ليس هنالك ما اخشاه .

ـ الطفلة ؟

ـ هي ايضاً ، لا تستطيع السكن في القرية ، الاطفال يؤذونها ، والناس يصلبون على صدورهم كلما التقوا بنا ، عالم رهيب ليسامحهم يسوع .

ـ يسوع . . . قالت الطفلة ومسحت الارض بكفها وتجهم وجه الاب ندرة .

ـ تعالي بجانبي يا حبيبتي ، نهضت الطفلة وقرفصت بجانب خالها .

ـ ليغفر الله لنا ولهم . طالما شجوا رأسها بالحجارة ، يلاحقونها بفضول

شرير عندما اكون غائباً في البلد الاحق بعض المعاملات لأعيش ، أعود فأجدها مجروحة .

ـ ولهذا تخشى الغرباء ؟

ـ لم تخش منك الا ترى ؟

ـ كم عمرها . ثمانية اعوام ؟

ـ اكثر بكثير ولدت ايام الوحدة مع مصر

وشعرت ان يداً تعتصر قلبي ،

ـ كم وزنها ؟

ـ وزن سلة تين أو أخف ، لكن همها اثقل من هذا الجبل . انها تفهم كل ما تقوله الآن .

ـ الم تجد امراة ترعاها ؟

ـ . . . استطعت اخيراً تجنب شفقة الحجاج والسياح فمنهم من يتبرك بها ومنهم من يرسم الصليب ويبكي ويهرب ، عالم مرعب .

منذ سنوات كانت ترافقني الى مزار القديسة مار تقلا في معلولا . اعود في كل مرة والغضب يملأ صدري . ليس هناك اشد توحشاً من الشفقة الكاذبة .

ـ هل استعصى الامر على العلم الحديث ؟

ـ جاءتني حاجة طيبة القلب من محسنات لبنان وأخذت البنت الى بيروت ليفحصها طبيب الماني ، عادت بها بعد ايام ، لا أمل .

ـ لا أمل هل هذا ممكن ؟

ـ قلبها ينمو بينما القفص الصدري على حاله مشوهاً هكذا .

ـ لا افهم .

ـ وأنا أيضاً لا اريد أن افهم .

ـ ماذا قالت هذه المحسنة الحاجة ؟

ـ في سن السادسة عشرة سينفجر قلبها ، هذا ما قالته الحاجة تلجة .

ـ ما هذا التهويل يا رجل . الست مؤمناً ؟

ـ انا مؤمن لكني مؤمن بالعلم . كان يسوع طبيباً . ارادة الله .

ـ هبة تعرف الرسم ، ووضع كأس الشاي جانباً وربت على رأس الصغيرة هاتي دفترك ، عمو فاتح رسام .

ـ عمو حلو !

ـ الا ترى لقد احبتك . لنر رسومها .

نهضت الصغيرة مستندة بذراعها إلى الأرض واتجهت نحو كومة الفراش وسحبت دفتراً عتيقاً وناولته لخالها وقالت بصوت غريب كمن يتكلم في جرة نحاسية .

ـ د دو

ـ تعني جدو ، وناولتني الدفتر ، وبدأت اتصفح الوريقات والرسوم بقلم الرصاص .

ـ ما هذا اني ارى صوراً عجيبة . ارى ولداً له رأس ماعز ، وهذه جاجات لها رؤوس اولاد ، وهذه بقرة لها رأس رجل !!

ـ هذه تبقى صورتي أنا !! قال الخوري وضحك .

ـ ددو حلو . قالت الطفلة بصوت شجاع

ـ انها فنانة يا رجل ـ قلت

ـ الله ما بيقطع ، اشعل لي سيجارة من سجائرك يا عمو فاتح .

ـ عمو فاتح . بدأت الطفلة تتكلم وذاب ثلج وحشتها .

تأملت هذا الوجه الذي اختزل في صورته اروع ما في النفس الانسانية

الحيوانية ،طهارة الطفولة مع غباء الكون ، الطفلة ليست غبية ، أما الكون وحده الغبي منذ الأزل والى الابد سيظل غبياً ، اما الانسان . . .

وأردت الترفيه عن صديقي الخوري البائس سألته :

ـ حدثني يا صديقي ندرة عن تاريخ هذه المنطقة عندما مرّ الفاتح العربي من هنا،ان هذا الوادي بعيد عن سير خط القوافل انه عالم مفقود ، ماذا قالوا في الكتب ؟

ـ زارنا الفاتح العربي، الم اقل لك ذلك ؟ جاءنا فارس واحد بعد فتح دمشق بقليل ، كان الجيش في طريقه الى انطاكية مروراً بحمص ، جاءنا لا يحمل سلاحاً وتحدث طويلاً مع الرهبان وطلب اعشاباً شافية للجروح واعتل صهوة جواده ، كان وحيداً نعم بلا سلاح . . .

ـ هذا كل ما هنالك ؟

ـ في اليوم التالي ، يقول المؤرخون ـ جاءت قافلة محملة بالمؤن تحرسها كوكبة من الفرسان .

ـ وبدون سلاح ـ سلمت هدية القائد للدير وعادت .

ـ القائد ؟

ـ كان الفارس خالد بن الوليد نفسه !

هزني الحادث ، ولتكن القصة اسطورة ، لكنها ليست غريبة عن القلب .

ـ نعم تلك كانت وصية الخلفاء الراشدين دائماً لقادة جيوشهم .

قال الخوري :

. . . انحسر الزمن من ذهني واصبح كله هذا المكان ، فأسندت رأسي الى

الجدار الحجري واغمضت عيني وبدأت رياح المغيب تصفرّ معلنة رحيل الشمس إلى شأنها وراء هذه الجبال .

نهضت لأودع الخوري الطيب والبنت الحدباء ، وعند الباب تقدمت الطفلة مني واعطتني علبة الكبريت ووضعتها في جيبي .

دخلت غرفتي كسير القلب مثقلاً بالحزن . وتمددت على أريكة بعد أن ابعدت لوحاتي ورحت احسب يوم ميلادها عام ١٩٥٨ واضفت ستة عشر عاماً ، وهبط قلبي . لن تعش طويلاً اذن . فتحت النافذة المطلة على البوابة الصخرية للقرية وتصورت العالم يهرب خارجاً من صدري ، يعدو عابراً البوابة واني اصبحت فارغاً تماماً ، وان كل لوحاتي لا تساوي ما تحويه هذه الطفلة ، كان الشيء الذي يهرول على الآفاق الليلية وحشٌ يشبه كلباً من بلاستك شفاف اجوف بلا قلب ، وانه يطارد انسان هذا الكوكب ثم يقف ببلادة على هذه التخوم يلعق قفاه . لعل القدر ليس له دخل هذه المرة ايضاً !!

لم اخرج من غرفتي طوال اليوم التالي ، وفي المساء زارني الاب ندرة وخرجنا قبيل الغروب نمشي على الدرب المجاور لمنزله على السفح نتأمل شمس المغيب ، وكانت قافلة من الجمال تحمل احمالاً ضخمة لعلها بقايا حصاد الشعير ، وارتسمت صورة الجمال تتحرك بايقاع هادىء .

ـ هل ترى الشيء الذي على ظهر الجمل الاخير ؟

ـ نعم ارى .

ـ انها كنيستي .

ـ هكذا صغيرة ومحمولة على جمل ؟

ـ نعم .

ـ ما أروعك يا ندرة اني ارى الطف كنيسة في العالم . ليتني اسمع جرس الكنيسة

ـ الجمل بعيد .

ـ سأسافر غداً إلى دمشق .

. . . يحزنني فراقك .

ـ لم لا تعود الى هلفى ، لعلها تريد أن تراك .

وفي الدار ، وفي هذه المرة جلست الطفلة الحدباء بجانبي وأخرجت من جيبها علبة الكبريت ، واخرجت بدوري من جيبي محفظة تحوي أقلاماً ملونة .

ـ هذه لك يا هبة ارسمي كثيراً . وكان الخوري قد خرج من الغرفة لشأن ما .

ونهضت الطفلة بدورها واتجهت نحو الجدار ورفعت رأسها ببطء ومدت يدها بصعوبة وتناولت علبة الكبريت وناولتني اياها وبلعت ريقها ونظرت في وجهي .

وضعتها على كفي وتناولتها من جديد والصقتها بأذنها اليسرى ، لعلها تسمع شيئاً . قلت بسري وناولتني العلبة صامتة .

ـ لي ؟

هزت برأسها، لوضعتها في جيبي وقرفصت الصغيرة تفتح محفظة الأقلام الملونة ، وعاد الخوري يحمل بعضاً من بيض الدجاج .

ـ نتعشى معاً ، انت مسافر .

ـ العشاء السري ؟ وضحكت . نظرت الطفلة الى وجه خالها ثم إلى

وجهي ونهضت وجلست بعيداً في زاوية الغرفة

ـ انظر هبة حزينة لسفرك .

ـ هبة سأعود ، اسافر لأرى ماما .

ـ ماما ورفعت وجهها الى صورة العذراء في الجدار . ولمست بيدي ظهر جبيي مشيراً الى هديتها فابتسمت .

كان الباب مفتوحاً ، لأرى من الليل ما يسمح به فراغ الباب : صفحة مستطيلة من العتمة وخطوط وهمية ترسمها رياح المساء وبعض بروز من الاحجار الكبيرة التي سقطت من اعالي الجبل . هل افتح علبة الكبريت هل اسمع ما يدور فيها كما فعلت هلفى . انتظر قليلاً لعله سر تحاول الطفلة اخفاءه حتى عن ددو .

وران صمت عميق على الغرفة عندما خرج الخوري مرة ثانية لاحضار ماء للشاي ، مددت يدي وأخرجت العلبة ، وكانت الطفلة الحدباء ترمقني دون أن تدير وجهها، تشبه كثيراً مومياء الطفلة الازتيكية التي ماتت بين الثلوج وتصورت كيف سينفجر هذا القلب يوماً . ادنيت العلبة من اذني ، الصقتها بصدغي ، ونظرت الى الصغيرة فابتسمت .

ـ ماما يسوع . تغني . وخرج الصوت كحفيف سعف النخيل لعلني لن اراك بعد اليوم ، وسمعت .

لعل الموسيقى التي تصورت سماعها في تلك اللحظة ، داخل علبة الكبريت كانت اصداء دورة المجرّة . فتحت العلبة ، ظهر في الضوء الخافت للقنديل الزجاجي « جعران » اخضر يقبع بلا حراك .

ـ زيز ـ قالت الطفلة ـ حلو يغني .

حررت الحيوان من اساره وتركته على ارض الغرفة ، اقتربت الطفلة منه ولمست ظهره ، فتحرك ومشى باتجاه الباب ، وانفجر في مسمعي غناء موسيقى لا كلام فيه كغرف الرياح في البراري وشعرت بنار تلف رأسي وكنت في حال يائسة بينما ارقب الجمران واتوهم سماع هذه الاصوات الغريبة تقترب وتبتعد . لم تحرك الطفلة ساكناً ظلت تراقب معي اختفاء الجمران بعد ان سقط في فراغ الليل .

الفهرست

مقدمة ٥
عود النعنع ١٣
خيرو العوج ٢٧
الغراف ٤١
النهر ٥٧
رشو آغا ٧١
الطفلة الحدباء والجعرّان ٨١

عود النعنع

فاتح المدرس في القصة القصيرة، كما في الفن التشكيلي، أحد الرواد والمعلمين. بصعوبة وافق على طبع «عود النعنع» قبل ثلاث سنين، مع أن قصص هذه المجموعة كان يتداولها الكثيرون منذ سنين عديدة، بحيث أنها لم تعد ملكاً لفاتح. واليوم، وبصعوبة أيضاً، يوافق على إعادة النشر، مع إضافة قصة جديدة واحدة.

بعد قراءة هذه المجموعة سوف يكون صوتي ضمن مئات الأصوات التي تطالب «فاتحاً» أن «يفرج» عما لديه من قصص أيضاً، وتطالبه أن يمنح هذا الفن جزءاً من وقته بعد أن كادت الوظيفة تغرقه وتبعده.

كيف تتحول القصة القصيرة إلى ملحمة، إلى نشيد؟ وكيف تستطيع، بإقتصادها المتناهي، أن تتحول إلى عالم بهذا الاتساع؟

هذا هو جوهر الفن، وهذا ما يقوله فاتح المدرس بأكثر من شكل وبأكثر من وسيلة.

عبدالرحمن منيف

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت